اللغة كنظام رمزي

لقد لازمت اللغة الإنسان وأصبحت جزءا من حياته لدرجة أنها تبدو لنا أمرا سهلا وطبيعيا كالتنفس والمشي وغير ذلك من النشاطات الإنسانية الأخرى التي لا تتطلب جهدا ظاهرا عند مزاولتها. إلا أن هذه النشاطات تختلف عن الكلام في أنها نشاطات بيولوجية بحتة يفطر عليها الإنسان ولا دخل فيها للثقافة والمجتمع والتعليم. فالإنسان يمشي بنفس الطريقة تقريبا أيا كان المحيط الثقافي الذي نشأ فيه ولا يضطر إلى تغيير مشيته حينما ينتقل من مجتمع لأخر. أما اللغة التي يتكلمها الإنسان فلا بد أن يتعلمها من المجتمع الذي ينتمي إليه ويعيش بين ظهرانيه، لذلك تختلف اللغات باختلاف الثقافات وتتعدد بتعدد المجتمعات الإنسانية. من أهم السمات التي تتميز بها الثقافة الإنسانية كما يعرفها الأنثروبولوجيون أنها مشتركة ومكتسبة وتراكمية يورثها السلف للخلف. من هذه السمات يتضح لنا أن الثقافة الإنسانية تستحيل بدون اللغة والتي هي في أساسها نظام رمزي. لا يمكن للإنسان أن يبتدع نظما للاقتصاد والسياسة والقانون بدون اللغة. ويستحيل اكتشاف الحقائق وتبادل المعلومات وتنظيم المجتمع بدون اللغة. اللغة هي الوعاء الذي يحتوي الثقافة والوسيلة التي تنقلها بين الأفراد وعبر الأجيال.

الرمز في حياة الإنسان

اللغة فرع من الأصل الذي هو قدرة الإنسان الفريدة على الترميز. الإنسان فقط يمتلك القدرة على إضفاء المعاني على الأشياء ويحيلها إلى رموز. الرموز التواضعية هي الخاصية الأساسية التي يتميز بها الإنسان لأنه هو الذي يصنعها وهو الذي يضفي عليها ما تحمله من القيم والمعاني. قدرة الإنسان على تصنيع الرموز واستخدامها هي التي مكنته من أن يتعامل مع محيطه الطبيعي والاجتماعي بشكل فعال ومؤثر يخدم مصالحه ويحقق أهدافه ويحرره من قيود الطبيعة. الرموز هي التي حولت سلوك الإنسان من استجابات شرطية إلى سلوك معرفي، إلى ثقافة. الإنسان صنع الرمز والرمز صنع الإنسان (White 1949: 22-4).

يلجأ الإنسان إلى مختلف المنبهات الحسية ليبتدع منها رموزا يضفى عليها معاني اصطلاحية تفيده في نقل المعلومات وتوصيلها (White 1949: 22-6). فهنالك إشارات الطرق وحركات اليدين والعينين وبقية أجزاء الوجه والجسم. وهنالك الهلال والصليب والمنجل والحمامة وغصن الزيتون والسواد الذي يرمز للحداد والبياض الذي يرمز للعفة والطهارة أو رفع القبعة رمزا للتحية والاحترام أو رمي الكوفية على الأرض دليل الإعجاب. إلا أن أهم وسيلة يلجأ إليها الإنسان في هذا الصدد هي الكلام. ولأهمية الكلام في حياة الإنسان قيل الإنسان حيوان ناطق. ولكن اللغة، على الرغم من أهميتها تبقى وسيلة من وسائل أخرى كثيرة يستخدمها الناس لتبادل المعلومات فيما بينهم.

الأشياء المادية التي توجد في محيط الإنسان الطبيعي لا حصر لها. والإنسان في الغالب لا يتعامل مع هذه الأشياء كمؤشرات حسية بحتة، بل إن نظرته لها تصطبغ بما يضفيه عليها مجتمعه من المعاني والقيم

الرمزية. التفاعل بين أفراد المجتمع هو الذي يعطي الأشياء ما تحمله من المعاني ويحولها من أشياء طبيعية physical objects إلى أشياء اجتماعية social object (Blumer 1969: 2-5, 68-9). وتكتسب الأشياء معانيها من استخداماتها وأهميتها في حياة الناس أثناء تفاعلهم بعضهم مع بعض. لذلك تختلف معاني الأشياء وتختلف نظرة الناس إليها حسب اختلاف استخداماتها من شخص إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى. البعير والنخلة عند العربي لهما من المعاني ما لا يمكن أن يدركه ويحيط به مواطن من اليابان أو الصين أو كندا. يقول هربرت بْلُومَر Herbert Blumer "الشجرة شيء مختلف لكل من قاطع الأخشاب وعالم النبات والشاعر، النجمة شيء مختلف بالنسبة لعالم الفلك المعاصر عما كانت عليه بالنسبة لراعي الأغنام في الزمن القديم، الشيوعية شيء مختلف بالنسبة للمواطن السوفيتي الغيور عما هي عليه بالنسبة لسمسار من سماسرةالبورصة في شارع وول ستريت (في نيويورك)" (Blumer 1969: 69). وبما أن الشيء نفسه قد يكون له عدد لا يحصى من الفوائد والاستعمالات فإنه بالتالي سيكتسب عددا يصعب حصره من المعاني والقيم. لذلك فإن الشيء يكون واحدا في وجوده المادي لكنه في الوقت ذاته عدة أشياء اجتماعيه.

الرموز أشياء اجتماعية يستخدمها الإنسان ليشير بها إلى أشياء أخرى، لتقوم مقام أشياء أخرى. هنالك الكثير من الأشياء الاجتماعية التي لا تستخدم للإشارة إلى أشياء أخرى لذلك فهي ليست رموزا. الرمز شيء اجتماعي ولكن ليس كل شيء اجتماعي رمزا. يمكنني مثلا أن أستخدم الزهور في تحضير العقاقير أو في تحضير الطعام أو في الزينة أو للشم، ولكن بإمكاني أن أحولها إلى رمز وأقدمها لمن أحب للتعبير عن مشاعري. كذلك الحمام يمكنني أن أنظر إليه كمصدر من مصادر اللهو والتسلية أو كطعام فاخر أو كوسيلة لبعث الرسائل أو كرمز للسلام. وقس على ذلك كل الأشياء.

ولما كانت الرموز أشياء اجتماعية لذلك فإنها كغيرها من الأشياء الاجتماعية تستمد معانيها من خلال تعامل أفراد المجتمع معها أثناء تفاعلهم بعضهم مع بعض. التفاعل الاجتماعي بين الناس هو الذي يولد الرموز ويضفي عليها المعاني ويعمل على تغيير هذه المعاني واستبدالها بغيرها. وتختلف الرموز عن غيرها من الأشياء الاجتماعية في أنها توظف في التواصل ونقل المعلومات والأفكار والمشاعر من شخص لآخر. ونجاح العملية التواصلية تقوم على توفر الفهم المشترك بين المرسل والمستقبل. ولكي يؤدي الرمز وظيفته التوصيلية ويتحول من مجرد شيء حسي إلى شيء ذي مغزى ودلالة يشترط أن يكون معناه معروفا لمستخدمه وأن يوظفه عن قصد وبوعي لتوصيل هذا المعنى ولفت الانتباه إلى الشيء الذي يرمز إليه. الشيء الأساسي في العملية الاتصالية هو أن يثير الرمز في ذهن المرسل نفس الشعور الذي يثيره في ذهن المستقبل (Mead 1934: 149). ليس من الرمزية في شيء أن تتجاوب الكلاب في النباح أو الديكة في الصياح لأن أصواتها لا تحمل معاني وإنما هي مجرد منبهات حسية يستجيب لها بني جنسها بأصوات مماثلة. صراخ الطفل الرضيع الذي يبكي لأنه جائع أو يتألم ليس رمزا. يتحول البكاء إلى رمز بعدما يكبر الطفل ويصل إلى سن يمكنه من أن يدرك مغزى البكاء ويبدأ في استخدامه بهدف نقل مشاعره إلى الآخرين والتأثير عليهم (Mead 1934: 144-5).

لو أمعنا النظر ودققنا الفحص لتحول العالم الطبيعي من حولنا إلى عالم رمزي. عالم الإنسان مزدحم بالرموز. بل إن سلوك الإنسان سلوك رمزي. تخيل أننا ضربنا موعدا للقاء أنا وأنت لبحث قضية ما. أحدنا قد يحضر قبل الآخر أو بعده ويكون حضوره إما في الموعد المحدد تماما أو قبله أو بعده. ولنفرض أنك

سبقتني إلى الموعد وجلست تنتظرني وحينما رأيتني قادما ألقيت نظرة على ساعتك اليدوية ثم نهضت من مقعدك لمقابلتي ومصافحتي ومعانقتي. وبعد تبادل التحية ندلف إلى غرفة الاجتماع وتقوم أنت بفتح الباب وتشير لي بيدك ترجوني أن أتقدمك. وأثناء الاجتماع نختلف وتعلو أصواتنا فتنسحب من الاجتماع وتخرج مسرعا وتغلق الباب وراءك بعنف. كل حركة من هذه الحركات لها أكثر من معنى ودلالة وهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى توضيح.

حينما يستجيب الفرد لتصرفات الآخرين بشكل عفوي ومباشر وبدون أن يؤل هذه التصرفات أو يفسرها فإن هذا النوع من السلوك لا يحمل أي قيمة رمزية. لكي يتحول رد الفعل من مجرد استجابة تلقائية إلى سلوك رمزي فإنه لا بد أن يشتمل على التأويل ويتضمن محاولة المتلقى تفسير تصرفات الآخرين تجاهه والقصد من ورائها (Blumer 1969: 8-9, 65-6, 79). فلو أنك تلقيت دفعة على جسمك من شخص آخر في مكان مزدحم فإن هذا في أغلب الاحتمالات لن يعني لك شيئا ولن تلقي له بالا لأن الناس في هذا المكان المزدحم كلهم يتدافعون. ولكن لو تلقيت هذه الدفعة من شخص تعتقد أنها صدرت منه عن قصد فإن تجاوبك مع الدفعة سيتحدد من خلال تأويلك للقصد من ورائها. قد ترى أن الشخص يريد أن يلفت انتباهك ويخرجك من شرودك الذهني، وقد ترى أنه يريد مداعبتك والمزاح معك، وقد ترى أنه يقصد مهاجمتك وإيذاءك. وكثيرا ما يحدث اللبس بين الناس في مثل هذه المواقف ويسيء بعضهم فهم بعض.

السلوك الحيواني لا يعدو أن يكون سلسلة من الاستجابات الغريزية المباشرة التي يثيرها فيه تلقائيا ما يتعرض له من منبهات طبيعية. أي أن علاقة الحيوان مع محيطه الطبيعي علاقة سلبية غير فاعلة ولا مؤثرة passive أما الإنسان فإن سلوكه يعتمد على التدبر والتأويل مما يحوله من مجرد كائن مستجيب responding organism يتحدد سلوكه قسريا من خلال ما يتعرض له مباشرة من مؤثرات خارجية إلى كائن فعال active يتصرف تجاه الأشخاص والأشياء والأحداث حسب ما يمليه فهمه لها وموقفه منها وتقييمه لها (Blumer 1969: 63-4). الإنسان لا يستجيب للأشياء ذاتها وإنما لمعاني الأشياء كما يفهمها هو، لما ترمز إليه الأشياء.

علم الإشارات

اللغة في أساسها نظام رمزي وهى نوع خاص من أنواع الرموز التي هي بدورها نوع خاص من أنواع الإشارات. لذلك فإنه لكي نفهم طبيعة اللغة ووظيفتها كسلوك إنساني ينبغي أن نتناولها كنظام رمزي ضمن علم الإشارات semiotics. من أبرز الرواد الأوائل لعلم الإشارات بمفهومه الحديث عالم اللغة السويسري مونغِن فِرْدينان دي سُوسِير (١٨٥٧–١٩١٣) Mongin Ferdinand de Saussure وهو يمثل الاتجاه اللغوي الذي تغلب عليه النزعة العقلانية وكذلك العالمان الأمريكيان تشارلز بِيْرْس (١٨٣٩–١٩١٤) Charles Sanders Pierce ويمثل الاتجاه الفلسفي وتشارلز موِرس (١٩٠١–١٩٧٩) Charles William Morris ويمثل الاتجاه السلوكي الامبيريقي، وهو التوجه الذي اصطبغت به الدراسات الأمريكية في هذا المجال حتى ظهور العالم اللغوي الحديث نعوم تشومسكي Noam Chomsky.

علم الإشارات وفق ما حدده بِيْرْس وموِرس لا يُعنى بدراسة أشياء معينة لذاتها وإنما ينصب اهتمام هذا العلم على الوظائف الإشارية للأشياء التي يمكن أن تؤدي هذا الغرض، علما بأنه لا يمكن لأي شيء أن يشير لأي شيء آخر خارج عن ذاته إلا بوجود المُؤَوِّل الذي تستقر في ذهنه هذه العلاقة بين ذلك الشيء

وما يشير إليه (Noth 1990: 39-55). ويمكننا أن نعرف الإشارة sign بأنها أي شيء محسوس يحضر إلى الذهن شيئا آخر بحكم ما بين الشيئين من علاقة. وتقوم العملية الإشارية على ثلاثة أركان (Morris 1938: 3-6; Sebeok 1976: 7):

١/ المنبه الحسي الذي يمكن توظيفه كإشارة sign.

٢/ المشار إليه designatum /referent وهو الشيء الذي يشير إليه المنبه الحسي ويدل عليه. ويمكن أن يكون المشار إليه شيئا محسوسا أو فكرة مجردة يدركها العقل ولا تلاحظها الحواس.

٣/ المُؤَوِّل interpreter وهو الذي يؤول الإشارة ويفسر معناها بحكم ما بينها وبين المشار إليه من علاقة.

والعلاقة الإشارية التي تقوم بين المنبه الحسي وما يشير إليه يمكن أن تتخذ واحدا من ثلاثة أنماط (Jakobson 1971; Nida 1964: 30-1; Sebeok 1976: 42-5):

١/ علاقة طبيعية كالعلاقة بين الدخان والنار أو بين السحاب والمطر أو تساقط الأوراق الذي يؤذن بمقدم الخريف أو الشخير الذي يدل على النوم. وهذا النوع من الإشارة يسمى علامة index.

٢/ علاقة شكلية تقوم على الشبه بين المنبه الحسي وما يشير إليه كالعلاقة بين الإنسان وصورته أو بين الخريطة الجغرافية والمنطقة التي تشير إليها أو بين اللون الأحمر والدم. وهذا النوع من الاشارة يسمى أيقون icon.

٣/ علاقة تواضعية اصطلاحية مصطنعة يفرضها الإنسان ويحدد معناها كالعلاقة بين الأسماء والمسميات وهذا النوع من الإشارة يسمى رمزا symbol.

وحيث أن الإشارة مهما كان صنفها (علامة أو أيقونا أو رمزا) لا بد أن تتخذ شكلا محسوسا تدركه الحواس فإن ذلك يعني أنها تتضمن نوعين من المعلومات: معلومات عن الإشارة نفسها كلونها أو طعمها أو رائحتها ومعلومات عن الشيء الذي تشير إليه. ولا بد للمؤول أن يدرك النوع الأول من المعلومات ويحس به لتحصيل النوع الثاني الذي قد يستطيع استخلاصه وقد لا يستطيع. نستطيع مثلا أن نميز بين الرائحة الزكية والرائحة الكريهة وانطلاقا من ذلك قد نستطيع أن نعرف مصدر أي منهما ونحدد ما إذا كان باقة من الورد أو غير ذلك. وحينما نسمع عزفا منفردا فإننا قد نستطيع أن نحدد نوع الألة ومهارة العازف وربما اللحن أو الأغنية إن كنا نعرفها مسبقا. وحينما تحس بالجوع في بلد اجنبي فإنك حالما تشم رائحة زكية تعرف أنها رائحة طعام ولكن قد لا تستطيع أن تحدد نوع الطبق لأنك لا تعرفه مسبقا. تماما هي الحال حينما تستمع إلى رطانة أجنبية في المذياع فإنك لن تفهم ما يقوله المتكلم ولكن يمكنك أن تستنتج من نبرة الصوت ونغمته أشياء كثيرة مثل سن المتكلم وجنسه وحالته الصحية والنفسية. ولعل أوضح مثال يمكن إيراده هو جرس الباب. هنالك أنواع لا تحصى من الأجراس كل منها له صوته المتميز. أنت حينما تكون وقطتك داخل البيت وتسمع جرس الباب يرن فإن صوت الجرس بالنسبة للقطة لا يعدو أن يكون منبها حسيا تدركه حاسة السمع. أما بالنسبة لك فإن صوت الجرس منبه حسي تتبين نغمته التي تختلف عن نغمات الأجراس الأخرى وهو كذلك رمز يلفت انتباهك ويشير إلى أن هناك شخصا عند الباب ضغط زر الجرس وينتظر منك أن تذهب لتفتح له.

العلاقة الطبيعية أو الشكلية القائمة بين العلامة أو الأيقون وبين المشار إليه علاقة حتمية منطقية.

ويستطيع الإنسان أن يدرك ما يدل عليه هذا الصنف من الإشارات بحكم ما حباه الله من القدرة على الربط الذهني والتفكير السببي (Mulder *et al* 1972: 16). فالكل يعرف مثلا أن تفتح بعض أنواع الزهور وعودة بعض أسراب الطيور يؤذنان بمقدم الربيع. هذا النوع من المعرفة يساعد الإنسان على التكيف مع بيئته. فالإنسان يستطيع أن يتعرف على الجهات الأربع وعلى الفصول من حركة النجوم ومن اتجاه الرياح. كما يستطيع مثلا أن يستخلص الكثير من المعلومات عن الحيوان من أثره وروثه مما يساعده على الهرب منه إن كان مفترسا أو القبض عليه إن كان شاردا أو اقتناصه إن كان من الطرائد. وحينما يشاهد البحارة الطيور يعرفون أنهم اقتربوا من اليابسة. والهدف الأساسي من هذه الظواهر الطبيعية ليس تنبيهنا إلى ما تشير إليه لأن هذه الوظيفية التوصيلية أمر عارض نستخلصه بحكم معرفتنا بقوانين الطبيعة والعلاقة بين الأسباب والنتائج. المعرفة الإنسانية والعلوم تقوم على هذا النوع من الربط. الطبيب مثلا يستدل على المرض من الأعراض الظاهرة. البعثة الأثرية حينما تعثر على قطع من الفخار في موقع ما تستنتج أن ذلك الموقع كان مأهولا في زمن مضى فتشرع في الحفر والتنقيب.

يروض الإنسان قوانين الطبيعة أحيانا فيستغل العلاقة الحتمية بين السبب والنتيجة لتوصيل بعض المعلومات مثل قياس درجة الحرارة بالترمومتر أو الاستدلال على الوقت بالساعة أو على غليان الماء بالصفير (Mulder *et al* 1972: 16). ونلاحظ أن هنالك فرقا بين الصفير الذي يدل على غليان الماء –والذي يأتي كنتيجة متوقعة من ازدياد ضغط البخار بازدياد الحرارة– وبين الصوت الذي تصدره صفارة الإنذار التي تطلق مثلا للتحذير من هجوم جوي. العلاقة بين صفارة الإبريق وغليان الماء علاقة طبيعية أما العلاقة بين صفارة الإنذار والهجوم الجوي فهى علاقة مصطنعة، إذ أن بإمكان الإنسان أن يلجأ إلى أي وسيلة أخرى أو أي صوت آخر للتحذير من الهجوم الجوي. كذلك العلاقة بين الدخان والنار علاقة طبيعية. لكن العلاقة بين إطلاق سحب الدخان لتحذير الأنصار البعيدين أو طلب المساعدة منهم علاقة مصطنعة. فبينما تلجأ بعض قبائل الهنود الحمر لهذه الطريقة نجد القبائل العربية تصطنع بدلا من ذلك وسائل أخرى مثل دق الهاون أو قرع الطبول.

وهنالك حركات وأفعال لا إرادية تصدر عن الإنسان لكنها تشير بصورة طبيعية إلى حالته الشعورية أو الجسمية مثل التثاؤب والضحك والبكاء واحمرار الوجنتين وبحة الصوت وغنته ويبس الريق والشفتين وخفقان القلب وما شابه ذلك. هذا بخلاف العلامات التي يبتدعها الإنسان ويعطيها معاني من عنده مثل هز الرأس إلى الجانبين للدلالة على الرفض أو إلى أعلى وأسفل للدلالة على الموافقة أو التلويح باليد للوداع أو ضرب الكف على الكف للتحسر والندم.

هذه الأمثلة توضح لنا الفرق بين الرمز (الإشارة المصطنعة) وبين العلامة (الإشارة الطبيعية). ولا يقل عن ذلك وضوحا الفرق بين كل منهما وبين الأيقون (الإشارة الشكلية). العلاقة بين الإنسان وصوته أو رائحة جسده أو بصمة إبهامه أو أثر قدميه علاقة طبيعية بينما العلاقة بينه وبين أسمه علاقة مصطنعه فرضها أبواه اللذان أطلقا عليه الاسم. أما العلاقة بينه وبين صورته الفوتوغرافية فإنها علاقة شكلية تقوم على الشبه بينهما. الكلام عبارة عن رموز صوتية، أما ما يصاحب الكلام من حركات في اليدين أو تغيرات في الصوت فهى في معظمها إشارات أيقونية. مثال ذلك حينما تصف شيئا بقولك إنه كبير جدا بإمكانك أن تستعيض عن كلمة جدا بتفخيم صوتك ومطه أو بفرد يديك إلى الأمام والمباعدة ما بينهما. أما ترقيق الصوت ومطه أو

فرد السبابة والإبهام والتقريب ما بينهما مع ضم بقية الأصابع فإن هذا يعنى أن الشيء صغير جدا. ومثال ذلك العلاقة بين عملية الذبح الحقيقية والتهديد بالذبح بتمرير السبابة على النحر. ولعله من نافلة القول أن نؤكد هنا على أن العلاقة بين الأيقون ومدلوله لا يمكن أن تكون علاقة شبهٍ تام وتطابق كامل بينهما وإلا لاستحال التمييز بينهما في تلك الحالة أو أصبح الأيقون هو ذات الشيء المشار إليه.

بما أن العلاقة الطبيعية أو الشكلية علاقة منطقية حتمية فإنها ثابته لا تتغير بتغير المكان ومرور الزمان. أما العلاقة التواضعية التي تقوم بين الرمز والمرموز إليه فإنها تختلف باختلاف الشعوب والثقافات لأن الرموز لا تستمد معانيها من خواصها الطبيعية أو من أشكالها المحسوسة (White 1949: 25-6). لذا لا يمكن أن تفهم كلمة أجنبية بمجرد سماعها أو أن تدرك مغزى نتف الشعر ولطم الخدود وشق الجيوب إلا إذا نشأت في المجتمع الشرقي الذي تلجأ فيه النساء إلى هذه الحركات للتعبير عن الحزن أو المصائب. العلاقة الرمزية علاقة تواضعية اعتباطية يصطنعها البشر ويصطلحون عليها فيما بينهم كأن يصطلحوا على أن اللون الأحمر يعني قف والأخضر يعني سر أو أن الخطوط البيضاء الموجودة على طول الطريق إذا كانت متقطعة فهذا يعني السماح بتجاوز السيارة التي أمامك بينما لا يُسمح بالتجاوز إذا كانت الخطوط غير متقطعة.

تصنيف الإشارات وتقسيمها إلى علامات وأيقونات ورموز لا ينفي بالضرورة وجود قدر من التداخل والتمازج والتدرج بين هذه الأصناف الثلاثة (Sebeok 1976: 41). هنالك حالات تكون فيها الإشارة رمزا في سياق معين وعلامة أو أيقونا في سياق آخر، وقد تكون مزيجا من هذه الأصناف الثلاثة أو اثنين منهما. بل إن هنالك حالات يصعب فيها الجزم ما إذا كانت الإشارة رمزا أو علامة أو أيقونا. صورة المنجل مثلا تشير إلى آلة الحصاد على المستوى الأيقوني لكنها تشير إلى الشيوعية على المستوى الرمزي. وكلمة "صرصار" مستمدة من الصوت الذي يصدر عن هذه الحشرة لذلك فإن العلاقة الاعتباطية بين هذه الكلمة ومدلولها لا تخلو من المسحة الأيقونية لأنها تشبه صوت الحشرة. وهكذا بالنسبة لبقية الكلمات التي تسمي الأشياء بحكاية أصواتها والتي توحي ألفاظها بما تشير إليه onomatopoeic words. ومن الممكن أن تستشف مسحة من الأيقونية في القصة التي تحكي أحداثا معينة تماما كما وقعت وحسب التسلسل الذي وقعت فيه. والعلاقة بين الكلمات ومعانيها علاقة اعتباطية لكن العلاقة بين نبرة الصوت ونغمته وحدته وارتفاعه علاقة أيقونية نستدل منها مثلا على سن المتكلم وجنسه ومشاعره وأحاسيسه ومدى حماسه للموضوع الذي يتحدث فيه. ويورد تشارلز هُكِت مثالا يوضح فيه ما يمكن أن يحدث بين أنواع العلامات من تدرج وتمازج. يقول هُكِت إن خارطة الطرق road map تتضمن مزيجا من العلامات الأيقونية والرمزية. النقط والخطوط التي تشير إلى المدن والتلال والأنهار والطرق ترتب على الخارطة كما هي على الطبيعة مع تحديد مقياس الرسم، وهذه علاقة أيقونية. لكن حجم وشكل النقط التي تمثل المدن وكذلك عرض وألوان الخطوط التي تمثل الطرق والأنهار رموزا اعتباطية (Hockett 1977: 143). ولو أخذنا صورة مرئية ومسموعة مجسمة ومتحركة لشخص ما فإن هذه الصورة الأيقونية ستكون أقرب إلى الأصل من الصورة الفوتوغرافية وهذه أقرب إلى الأصل من اللوحة المرسومة باليد التي هي بدورها أقرب إلى الأصل من الكاريكاتير (Morris 1946: 98-9).

مما تقدم نلاحظ غلبة النزعة الامبريقية والسلوكية على المدرسة الأمريكية في الدراسات السميوطيقية عموما. وهذا التوجه يختلف جذريا عن التوجه العقلاني rationalist الذي أسسه سُوسِير والذي يركز أساسا على اللغة كنظام رمزي وهو ما سنوضحه لاحقا حينما نتحدث عن النظرية اللغوية عند سُوسِير.

تواضعية اللغة

نعود لنقول أن اللغة نظام من الرموز تواضع عليها الناس واصطلحوا لتكون وسيلة للاتصال فيما بينهم. أي أن علاقة المعنى التي تربط الصوت بالشيء الذي يدل عليه ليست علاقة سببية ولا شكلية ولا طبيعية بل عشوائية اعتباطية، لكنها علاقة ثابته. فكلمة ملح ليست مالحة ولا كلمة سكر حلوة. وهناك كلمات مثل "نمل" و "جمل" التي تتساوى في عدد أصواتها ولكنها تشير إلى أشياء متفاوته في الحجم. ليس هناك في الكلمتين "قط" و "كلب" ما يوحي بما بين هذين الحيوانين من فارق في الصوت والحجم واللون والرائحة. ولا يوجد بين الكلمات "نمر" و "فهد" و "أسد" ما يدل على صلة هذه الحيوانات وقربها بعضها من بعض في التصنيف البيولوجي. وليس بين كلمة "نعامة" و "رئل" ما يدل على أنهما ذكر وأنثى من نفس الفصيلة. وكلمة "ناقة" أقرب إلى كلمة "فاقة" منها إلى "جمل". بل إن المترادفات تشير إلى نفس الشيء بالرغم من اختلافها في اللفظ بينما هناك ألفاظ متجانسة تشير إلى أشياء لا يمت بعضها بصلة لبعض. هذه العشوائية لا توجد مثلا في رقصات النحل والتي يلاحظ أن هناك علاقه بينها وبين بعد مصدر الرحيق أو قربه، فالرقصات البطيئه تشير إلى بعد المصدر والسريعة قربه. أما الكلمات فلا يوجد بينها وبين معانيها أي علاقة أو شبه. لذلك نجد أن الشيء نفسه يشار إليه بكلمات مختلفة تختلف باختلاف اللغات ولا يمكن لأي شخص غريب أن يستنتج معنى أي كلمة بلغة أجنبية بمجرد سماعها، وإلا لأصبح تعلم اللغات الأجنبية أمرا ميسورا. كذلك النظام الصرفي الذي بموجبه تتألف الأصوات في كلمات والنظام النحوي الذي بموجبه تتألف الكلمات في جمل والعلامات التي تبين الفاعل من المفعول وأساليب النفي والاستفهام وغير ذلك من القواعد اللغوية كلها أمور تواضعية. فليس بإمكاننا أن نتنبأ سلفا وبدون سابق معرفة ما الميزات التي ستختص بها هذه اللغة أو تلك وما الأصوات التي ستحتوي عليها ونسبة أصوات الغنة مثلا إلى بقية الأصوات. إلا أنه لكي يتم التواصل لا بد أن يكون السلوك اللغوي محكوما بنظام متماسك داخليا وقائم بذاته يعرفه المتكلم والسامع وأن تكون العلاقة ثابته بين الكلمة وما تشير إليه. كما أنه لا بد أن يتم تركيب الجمل وتمييز أجزاء الكلام وفق قواعد وأعراف لغوية يعرفها من يتكلمون اللغة، وإلا لاستحال التخاطب والتفاهم وانقلب التواصل إلى عملية تقوم على الحدس والتخمين بدل الفهم السليم. ولا شك أن التواضعية تجعل تعلم اللغة مهمة غير يسيرة حيث يلزم المتعلم أن يحفظ الكلمات ومعانيها كلها عن ظهر قلب وكذلك القواعد اللغوية، كما تعيق عملية التفاهم بين الجماعات الإنسانية التي تتكلم لغات مختلفه. لكن التواضعية لها ميزة عظمى تغطي على هذه السلبيات البسيطة نسبيا وذلك أنها تجعل من السهل سك كلمات ومصطلحات جديدة كلما دعت الضرورة، مما يجعل اللغة نظاما اتصاليا مرنا للغاية يمكن توظيفه والاستفادة منه في كل مجالات الحياة.

الكلمات، إذن، ليست مجرد تسميات نطلقها على أشياء مستقلة بوجودها ومفاهيم قائمة بذاتها وجدت في الطبيعة أصلا قبل وجود اللغة والإنسان (Saussure 1966: 16-7, 65). هذه الحقيقة التي توصل إليها دي سُوسِير تعد خروجا عن المسلمات العلمية السائدة في أوروبا حتى ذلك الحين. كان علماء اللغة الغربيون آنذاك يرون أن هناك نوعا من التلازم المنطقي والوشائج الطبيعية بين الدال والمدلول وأن وظيفة اللغة تنحصر في إطلاق الأسماء على الأشياء nomenclaturism. لو عدنا إلى محاورة أفلاطون المعنونة كراتِلاس Cratylus لوجدنا أن افلاطون كان يدفع بفكرة أن وجود اللغة سبق وجود الإنسان وأن فهم اللغة فهما حقيقيا يقتضي فهم علاقة الاسم بالمسمى لأن الاسم يعبر عن جوهر المسمى ويختزل كنهه الحقيقي. في هذه المحاورة

يدور النقاش حول كائن أسطوري يطلق عليه أفلاطون لقب "موجد الأسماء" وإليه أصلا تؤول مهمة ابتداع اللغة. وقد راعى هذا الكائن الأسطوري في مهمته أن تتناسب الأسماء مع مسمياتها بشكل صائب يجعل الكلمات توحي بما تشير إليه من أشياء. إلا أنه مع مرور الزمن وخلال تاريخ الإنسان الطويل على هذه الأرض أدى تكرار استخدام الكلمات إلى ابتذالها والتهاون في شأنها، ومن ثم إلى فساد اللغة بحيث لم يعد بمقدور السامع أو المتحدث أن يتلمس العلاقة الطبيعية بين الشيء واسمه ولا أن يراعيها في استخدام الأسماء وإطلاقها على الموجودات. هذه النظرية التي قدمها افلاطون وتشبث بها فلاسفة اللغة من بعده لا تفترض فقط أن الأشياء لها وجود مستقل عن أسمائها وسابق له، بل تفترض أيضا أن هناك علاقة تبادلية surrogationalism بين الاسم والمسمى بحيث يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر ويقوم مقامه لما بين الاثنين من تلازم منطقي وعلاقة طبيعية. لذا فإن الكلمات تكتسب معانيها بالنسبة لنا من الموجودات التي تشير لها وتحل محلها في العالم الخارجي (Harris 1988: 7-17).

ومما يؤخذ على هذه النظرة التقليدية أنها تفترض أن اللغة ليست إلا كلمات تسمى بها الأشياء في العالم الخارجي. لكن هناك الحروف والأدوات والقواعد النحوية والصوتية، وقس على ذلك. والأهم من ذلك أن هذه النظرة التقليدية، كما يرى سُوسِير، تؤدي إلى عزل الكلمات عن النسق اللغوي الذي تنتمي إليه وإلى عزل المتكلم عن الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها، فهي تحدد دلالة الإشارة اللغوية لا بالرجوع إلى داخل النسق اللغوي نفسه وإنما تحدده من خارج النسق، أي ليس بالنظر إلى علاقة الإشارة اللغوية بغيرها من الإشارات التي تشكل معها نسقا متماسكا وإنما من علاقتها بأشياء لها وجودها المستقل خارج اللغة (Harris 1988: 17; Holdcroft 1991: 12).

خذ مثلا مفهوم "الإنسان" الذي نعبر عنه في العربية بكلمة "إنسان" وفي الانجليزية بكلمة man وفي الفرنسية بكلمة l'homme، وقس على ذلك بقية اللغات. قد يوحي هذا بأن الكلمات أسماء تطلق على مفاهيم مستقلة عنها قائمة بذاتها وسابقة لها في الوجود؛ وأن هذه المفاهيم مستقرة ثابتة تشترك فيها كل الشعوب والأمم عبر الزمان والمكان مهما اختلفت فيما بينها على الصعيد اللغوي. لو كان هذا صحيحا لما وجدنا عنتا في تعلم اللغات الأجنبية ولما كابدنا في الترجمة من لغة إلى أخرى، ولما اقتضى منا ذلك أكثر من استبدال كلمة عربية بمقابلها الأجنبي. إلا أن هناك من الأمثلة ما يفوق الحصر ويستعصي على العد وكلها تبين لنا أن المفاهيم تتمايز بتمايز المجتمعات وتتباين بتباين اللغات. مثال ذلك ما ذكره عباس محمود العقاد في كتابه **أشتات مجتمعات** عن الفوارق بين مفهوم كلمة "العيد" في العربية ومفهومها في اللغات الأوربية. الكلمة العربية تدل على عودة العيد كل سنة وتكرار حدوثه في نفس التاريخ. أما في اللغات الأوربية فإنها تفيد معنى الاحتفالية والوليمة ووفرة الطعام أو التوقف عن العمل أو الاحتفال الديني (العقاد د. ت: ٩٩).

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الدوائر الدلالية في اللغة الواحدة تتسع وتضيق بمرور الزمن وتتبدل بتبدل الأحوال. مثلا كلمة "خف" كانت تطلق أساسا على خف البعير ثم توسعت الدائرة الدلالية لهذه الكلمة لتشمل الخف الذي يلبسه الإنسان كما في قولنا "المسح على الخفين". و"الريشة" كانت تطلق أساسا على ريشة الطير ثم استعيرت للدلالة على الأداة التي تتخذ من الريش لتستخدم قديما في الكتابة والآن استبدلت ريشة الطير بقلم الحبر وتغير بذلك مدلول الكلمة لكن الكلمة لم تتغير. و"الخاتم" سمي كذلك أصلا لأن اسم صاحبه كان ينقش عليه ليستخدمه في ختم الرسائل ومع أنه فقد هذه الوظيفة في زمننا هذا إلا أن الاسم

لا يزال باقيا (عبد التواب ١٩٨١: ١١٢، ظاظا ١٩٧٦: ٥٣-٤). ويقول محمد المبارك "إن تبدل العادات خلال العصور التاريخية قد يؤدي إلى تغير الشيء المسمى مع بقاء الكلمة الدالة عليه وبذلك يكون مدلول الكلمة نفسه قد تغير ضمنا ولو في شكله. فمن ذلك أن من يتزوج من العرب كان يخرج عن بيت أبيه ويبني لنفسه خباء مستقلا ولذلك قالوا بنى بزوجته أي بنى بيتا معها وكان المهر المستعمل إبلا أو غنما تساق فقالوا السياق بمعنى المهر وساق لها وكانوا إذا باعوا شيئا صفق البائع على يد المشتري فسموا البيع صفقة وبقي اللفظ وذهبت عادة الصفق." (المبارك ١٩٧٠: ٢١٤-١٥). ومثلما يتغير المدلول ويبقى اللفظ ثابتا كذلك قد يتغير اللفظ ويبقى المدلول واحدا كأن نطلق على امرأة الرجل "زوجة" و"حليلة" و"قرينة" و"حرم".

من الأمثلة السابقة يتبين لنا أننا لو أخذنا بمبدأ أن اللغة مجرد كلمات نطلقها على مفاهيم قائمة بذاتها فإنه لا بد لنا أن نفترض وجود عدد من المفاهيم المتباينة لكل كلمة من الكلمات التي أوردناها أعلاه وأن الكلمة أطلقت في البداية على هذا المفهوم ثم في مرحلة لاحقة على ذاك المفهوم وهكذا بالتدرج. لكن ما حدث في الواقع هو أن المفهوم الذي نطلق عليه الكلمة أساسا كان هو ذاته في حالة تحول مستمر عبر عصور التاريخ. ولو كانت هناك علاقة طبيعية أو منطقية بين الاسم والمسمى لأدى تحول المفهوم إلى تغير اللفظة التي تدل على ذلك المفهوم أو العكس. بل لو كان وجود الأشياء والمفاهيم سابقا لوجود اللغة ومستقلا عنها وكانت الكلمات مجرد أسماء تطلق عليها لما حدث تغير في المفاهيم ولبقيت مستقرة على حالها رغم تطور اللغة وتغيرها عبر الزمن ورغم ما يحصل من تبدل في نطق الكلمات أو تحول عنها إلى غيرها.

تصنيف الموجودات وتسميتها

لا تتوقف اعتباطية اللغة عند حدود علاقة الدال بالمدلول وإطلاق الأسماء على الموجودات، بل إنها تتعدى ذلك إلى تصنيف هذه الموجودات. يعتقد عامة الناس أن الواقع يمكن التعرف عليه وإدراكه حسيا من الجميع بنفس الطريقة وعلى نفس الشاكلة. إلا أن الدراسات الحديثة في علم النفس الإدراكي تشير إلى أن معرفتنا بالواقع وإحساسنا بالأشياء المحيطة بنا يتم تركيبه وتأليفه عن طريق عمليات الإدراك والتعرف على البيئة والمحيط الخارجي وما فيه من أشياء، وهي عمليات في غاية التعقيد. ولقد بينت الدراسات المقارنة أن البشر يدركون العالم المادي من حولهم ويحسون بما فيه بكيفيات ووسائل تتباين من مجتمع لآخر وأن ما نعتقد أنه الواقع هو في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون مركبا اجتماعيا social construct.

يتم استقبال المعرفة وتخزينها ومعالجتها في الذهن؛ وذلك كله يعتمد في الأساس على العمليات الكهروكيميائية التي تحدث في الدماغ. ومعرفتنا بالشيء ليست نسخة طبق الأصل يلتقطها المخ لذلك الشيء. الطريق من المنبه الحسي إلى المخ طريق متعرج تتخلله الكثير من نقاط العبور. لذا فإن المنبه الحسي خلال مروره من هذا الطريق تعتوره الكثير من التحولات والتغيرات قبل أن يصل إلى المخ ويسجل هناك على شكل مدرك percept. الصوت مثلا لا بد أن يمر عبر الهواء على شكل ذبذبات قبل أن يصل إلى حاسة السمع التي تحوله بدورها إلى نبضات تنتقل عبر الأعصاب إلى المخ وهناك تتم معالجته وتحويله إلى مدرك (Spradley 1972: 8-9).

ولو اقتصرت العمليات الذهنية فقط على تكوين المدركات الحسية لوقعنا أسرى مستعبدين أمام خصوصية كل شيء نحس به أو حدث يمر بنا ولأصبح التعامل مع الأشياء والأحداث كلا منها على حدة عبئا ثقيلا لا

يتحمله العقل الإنساني ولا يقدر عليه. حواسنا يغمرها دائما سيل لا ينقطع من المنبهات الخارجية والمثيرات المتنوعة. إلا أن هذا السيل العرم من المدركات الحسية يختزل على شكل مفاهيم. كل مدرك حسي هو في واقع الأمر مدرك فريد متميز. لكننا نلجأ إلى اختزال المدركات التي تشترك في بعض السمات ونضمها إلى بعضها البعض، متجاهلين بذلك أوجه الاختلاف فيما بينها، لنؤلف منها مفهوما واحدا concept مثل مفهوم "شجرة" أو "زهرة" أو "بيت" أو "كرسي"، الخ. المدركات، إذا، لا تعدو أن تكون تصورات ذهنية للمنبهات الحسية التي ترد إلى الذهن من العالم الخارجي. ومن المدركات يتم تجريد المفاهيم. ولو لم يلجأ العقل الإنساني إلى هذه العمليات التجريدية والتعميمات لتحولت الحياة إلى فوضى لا تطاق ولأصبح من المستحيل التعامل مع الأحداث والأشياء على أساس أن كلا منها يمثل حالة فريدة وظاهرة مستقلة.

الناس عادة لا يلتفتون إلى كل الفروق الدقيقة وجميع السمات التي تميز بين كل ما يتعرضون له في حياتهم اليومية من منبهات ومثيرات تفوق الحصر. وهم لا يستجيبون لكل واحد من هذه المنبهات والمثيرات، برغم ما بينها من فوارق موضوعية، على أنه حدث جديد ومختلف. بل إننا نتعمد تجاهل الكثير من الفروق المادية والمميزات الحسية التي تجعل من كل منبه حدثا فريدا، رغم وعينا وإدراكنا لهذه الفروق والمميزات. ما يحدث في واقع الأمر أننا نقوم بتصنيف الأشياء التي تبدو لنا متشابهة ونضمها إلى بعضها البعض ونضعها في فصيلة واحدة ونستخلص خصائصها المشتركة لنخلق منها مفهوما مجردا نعطيه اسما تنضوي تحته كل هذه المدركات الحسية بصرف النظر عما يميزها عن بعضها البعض من فوارق حسية. عن طريق التصنيف والتسميات يفرض الإنسان قدرا من الانتظام والانضباط على عالم يعج بالمنبهات الحسية. نطلق اللفظ الواحد على كل أنواع الصنف وعيناته، أي على جميع التحقيقات العينية لهذا الصنف، ونسمي كل واحد منها حيثما وجدت على تعددها وتنوعها بهذا الاسم دون تخصيص. أي أننا نظرنا إلى كل هذه التحقيقات العينية الكثيرة على اختلاف صفاتها وتباين أشكالها وألوانها وروائحها وأحجامها وهيئاتها وجردنا منها السمات الأساسية المشتركة بينها ووضعناها في صنف واحد وأطلقنا على هذا الصنف اسما يدل عليه. ولقد تحدث الأستاذ المبارك عن هذه المسألة الهامة حديثا مستفيضا شاملا جاء فيه:

> إن تسمية الأشياء ووضع الألفاظ للدلالة عليها في كل لغة من اللغات نوع من تصنيف الموجودات المادية منها والمعنوية فيدخل تحت لفظ الشجرة والدار والنبات والحجر والمشي والقطع والصوت وسائر الألفاظ الدالة على شيء مادي أو فعل أفراد كثيرة لا تحصى وليست هي متماثلة متطابقة وكذلك يدخل تحت كل لفظ من الحب والبغض والكرم والبخل والذكاء والبلادة والشرف والخسة والفرح والحزن والغضب والنشوة حالات كثيرة جدا يختلف بعضها عن بعض ولكن اللغة جمعتها تحت عنوان واحد وجعلتها نوعا يسمى باسم واحد. فكل لغة من اللغات صنفت أفراد الكون وأجزاء الوجود في مجموعات أو أنواع وجعلت لكل مجموعة أو نوع اسما واحدا فكل ورقة من أوراق الشجر التي وجدت أو ستوجد مما لا يمكن عده ولا يتصور إحصاؤه على اختلاف أشكالها وذواتها تسمى ورقة. ومن هنا كان بين اللغات شيء من الاختلاف بين الألفاظ فلا يقابل كل لفظ نظيره من اللغة الأخرى مقابلة تامة دائما لاختلاف مفهوم الشعوب للوجود واختلافها في تصنيفه فقد تجمع لغة من اللغات في نوع واحد وتحت اسم واحد ما تفرقه لغة أخرى في نوعين أو أكثر وتسميه بأكثر من اسم واحد فالعمة والخالة في العربية يقابلها في الفرنسية لفظ واحد هو tante وكلمة رسالة في العربية يقابلها ألفاظ مختلفة في الفرنسية وهي lettreويراد بها الرسالة التي تكتب إلى قريب أو صديق مثلا و épitre ويقصد بها الرسالة التي تؤلف في موضوع معين و message وهي الرسالة التي يبعث بها ملك أو رئيس دولة إلى مثله في موضوع مع رسول يبلغها و mission وهي رسالة الأنبياء ودعاة الإصلاح، والخسارة والفقدان

أو الضياع يقابلها في الفرنسية لفظ واحد هو perte والتراب والأرض يقابلها terre.

إن الكلمة حين يجرى بها لسان المتكلم أو قلم الكاتب إنما يقصد بها غالبا شيئا بعينه ولكن الكلمة اللغوية بذاتها لا تدل على الشيء المقصود نفسه كما هو في الواقع أو في تصور المتكلم فإذا استخدم كلمة غرفة أو نهر أو فرح فهو يريد غرفة ذات طول معين وعرض وارتفاع ولون وأثاث وزينة، ويقصد نهرا بعينه، بمنظره وغزارة مائه وما يحيط به من قفر أو نبات أو بناء، ويعني فرحا من نوع خاص (المبارك ١٩٧٠: ٢٠٠-٢، ٢٠٤-٥).

وبما أن طرق التصنيف وكذلك إطلاق الأسماء إجراءات تواضعية تماما نجد أن الثقافات تختلف في السبل التي تنتهجها في ذلك. فهناك أشياء قد تبدو متشابهة وتصنف في فصيلة واحدة بالنسبة لهذه الثقافة بينما في ثقافة أخرى ينظر إلى هذه الأشياء على أنها مختلفة وتوضع في تصنيفات متباينة. وأبسط مثال على ذلك أن هناك أصنافا من المأكولات كالبندورة والشمام والبطيخ يختلف الناس حولها فيما إذا كانت من فصيلة الفواكه أو من فصيلة الخضروات. والاختلاف بين الثقافات لا ينحصر فقط في تصنيف العالم المادي بل إن الثقافات تختلف كذلك في ما تلتفت إليه من مظاهر العالم المادي وتعيره اهتمامها وتحاول تصنيفه (Spradley 1972: 9-11; Tyler 1969: 6-13). الظاهرة الواحدة قد تلتفت لها أحد الثقافات وتهتم بها بينما لا تعبأ بها ثقافة أخرى ولا تلقي لها بالا، والثقافات المختلفة قد تنظر لنفس الظاهرة من زوايا متفاوتة. يقول المبارك في هذا الصدد:

إذا تجاوزنا البحث عن النشأة الأولى لألفاظ اللغة ونظرنا في طريقة وضع الألفاظ للمعاني الجديدة بعد أن أصبح للغة رأس مال من المفردات الدالة على المعاني وجدنا أن ذلك يكون باختيار صفة من صفات الشيء الذي يراد تسميته أو بعض أجزائه أو نواحيه أو تحديد وظيفته وعمله واشتقاق لفظ يدل عليه من اللفظ الدال على صفته أو جزئه أو ناحيته أو وظيفته وفي هذا الموضع تختلف الأمم وتتفاوت في نظرتها إلى الأشياء وفي وضعها للألفاظ الحديثة التي تطلقها على المسميات . . .

أما الناحية الأخرى في هذا الباب فهي طريقة التسمية أو طريقة اختيار الصفة التي بها تكون التسمية فبينما نرى الفرنسي مثلا قد أطلق لفظ biscyclette أي ذات الدولابين على أداة الركوب المعروفة بهذا الاسم عندهم أطلق عليها العربي لفظ الدراجة فالفرنسي حللها إلى أجزائها ونظر إلى تركيبها وإلى حالتها الساكنة ونظر العربي إلى وظيفتها وعملها وحركتها فسماها دراجة وكذلك السيارة سماها الفرنسي automobile أي المتحرك بنفسه وسماها العربي بلفظ يدل على عملها (المبارك ١٩٧٠: ٣٠٤).

إن المشكلة التي تواجهنا مثلا في ترجمة كلمة انجليزية مثل uncle أو aunt أو cousin لا تكمن في الاختلاف بين مفردات اللغتين العربية والإنجليزية بقدر ما تكمن في الاختلاف بين الشعوب العربية والشعوب الأنجلوسكسونية في مفهوم النسب وتصنيف الأقارب. هذا ونلاحظ أن مفهوم كلمة "أخ" أو "أخت" في اللغتين العربية والإنجليزية لا يختلف باختلاف جنس المتكلم أو سنه عن الشخص المشار إليه. أما في اللغة التركية فإن المتكلم يستخدم مصطلحين مختلفين تبعا لما إذا كان الأخ المشار إليه أكبر من المتكلم أو أصغر منه. كما نجد في اللغة الجاوية أن الكلمة المستخدمة للإشارة إلى "أخ" أو إلى "أخت" تختلف تبعا لما إذا كان المتكلم نفسه ذكرا أو أنثى، أي تبعا لما إذا كان شخص المتكلم وشخص المشار إليه من جنس واحد أو من جنسين مختلفين. هذا يعني أن الأخ يطلق على أخيه كلمة غير تلك التي تطلقها الأخت على أخيها وأن الأخت تطلق على أختها كلمة غير تلك التي يطلقها الأخ على أخته. ومن هنا نرى كيف أن الاختلاف بين الشعوب العربية والتركية والجاوية والإنجليزية لا يقتصر فقط على الكلمات التي يطلقونها على الأقارب بل يتعدى ذلك إلى طريقتهم في تصنيف الأقارب ونظرتهم إلي مفهوم القرابة ودرجات القربى.

وما قلناه عن تصنيف الأقارب يمكن أن نقوله عن تصنيف الألوان، إذ أن لكل ثقافة أو مجتمع طريقته المتميزة في تقسيم الطيف. هناك بعض الشعوب التي تدقق في تصنيف الألوان وتقسيمها إلى أعداد تفوق الحصر وتطلق على كل منها اسمه المتميز. وهناك في المقابل بعض الشعوب البدائية التي لا تعرف إلا أصنافا قليلة من الألوان كأن تضع الألوان الداكنة على اختلاف درجاتها في فصيلة واحدة دون التمييز بينها والألوان الفاتحة في فصيلة أخرى.

ويورد جَنَثان كُلَر Jonathan Culler المثال التالي ليبين ما بين اللغات من فروق في تصنيف الموجودات. من الواضح أن الكلمات fleuve و rivièr دوال تنتمي إلى الفرنسية دون الانجليزية. بينما river و stream تنتمي إلى الانجليزية دون الفرنسية. لكن الأمر الذي ليس على نفس القدر من الوضوح وإن كان على قدر أكبر من الأهمية هو أن بنية النسق المفاهيمي يختلف في الانجليزية عنه في الفرنسية. المدلول river يقابل stream ويختلف عنه فقط بالنسبة للحجم بينما fleuve يقابل rivièr ليس بالضرورة لأنه أكبر منه وإنما لأنه يصب في البحر بينما rivièr لا يصب في البحر. باختصار fleuve و rivièr لا يشكلان مدلولين أو مفهومين في اللغة الانجليزية. إنهما يمثلان سبيلا آخر في مفصلة النسق المفاهيمي (Culler 1986: 19, 23-4). وحقيقة كون هاتين اللغتين (الانجليزية والفرنسية) كل منهما تؤدي مهمتها بشكل جيد جدا مع اختلافهما في مفصلة النسق المفاهيمي وتمييز المدلولات وتصنيف العالم الحسي يشير إلى أن هذه التجزئات ليست طبيعية ولا حتمية وإنما هي تواضعية بحتة، وهذا أمر جدير بالملاحظة. لا شك أنه يلزم لكل لغة وسيلة تلجأ إليها للحديث مثلا عن المياه الجارية، أو أي موضوع آخر، إلا أن اللغة يمكنها اللجوء إلى وسائل شتى من أجل تمييز المفاهيم وتحديد التصنيفات المناسبة في هذا الموضوع والتي قد لا تتفق مع الوسائل التي تلجأ إليها غيرها من اللغات كأن تحدد مثلا سرعة الجريان أو اتجاهه أو انحداره أو العمق أو الحجم أو الاستواء أو التعرج، وهلم جرا.

باختصار، لا توجد في هذا العالم أفكار مسبقة ومحددة قبل ظهور اللغة، ومدلولات الألفاظ ليست مفاهيم ثابته بل متغيرة حسب حالات الاستعمال وتطور اللغة. هذا يعني أن المفاهيم، أو المدلولات، ليست في حقيقتها سوى تجزءات تواضعية لعالم الحواس المتداخل المتمازج مما يعني أنها ليست وحدات مستقلة بذاتها يمكن تعريف كل منها بتحديد جوهر يختص به أو كنه يتفرد به. إن هذه المدلولات تشكل أجزاء مترابطة من نظام التصنيف المتماسك أو لنقل النسق المفاهيمي المتكامل الذي تتبناه هذه الثقافة أو تلك. فلو أردت أن أوضح لمحدثي ما أعنيه مثلا بكلمة "رَعْن" فإنني مضطر أن أبين له أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين هذه الكلمة وكلمات أخرى تقاربها في المعنى مثل "حيد"، "طود"، "أكمة"، "ربوة"، "تل"، "هضبة". ولتحديد معنى كلمة "غمام" ينبغي مقارنتها بكلمات مثل "سحاب"، "غيم"، "دجن"، "رباب"، "مزن"، "نشاص". ولتحديد معنى كلمة "سيل" ينبغي مقارنتها بكلمات مثل "مطر"، "غيث"، "صيّب"، "وبل"، "ديم"، "طل"، "طش"، "رش"، "رذاذ"، "شؤبوب". ولتحديد معنى كلمة "قليب" ينبغي مقارنتها بكلمات مثل "جب"، "بئر"، "حسي"، "ركية"، "عيلم"، "رس". وقس على ذلك بقية الأمور.

بناء على ما تقدم يمكننا القول بأن وجود الفروق المادية شيء وتوظيفها في التمييز والتصنيف شيء آخر. إدراك الفرق الحسي لا يعني شيئا ذا بال إن لم يوظف في تأسيس فروق معنوية وتمايزات دلالية. وإذا ما طرحنا جانبا الخصائص المادية الفيزيائية البحتة وقصرنا مجال البحث على الأشياء والظواهر المحملة بالمعاني فإننا سوف نجد أن السمات المحددة لأي من هذه الأشياء والظواهر كامنة في الخصائص التمايزية

التي تعطى كل منها المعنى الذي يحمله داخل النسق الرمزي الذي ينتمي إليه. وحينما نقوم بفصل ما هو وظيفي عما هو غير وظيفي من أجل اكتشاف النسق الداخلي فإن مجال اهتمامنا في هذه الحالة لن ينصرف إلى الخصائص الفردية المستقلة بل إلى الفروقات التي بها تتمايز العناصر داخل النسق وتحدد العلاقات فيما بينها وتعطي كل منها ما يحمله من معاني (Culler 1975: 5, 10-1).

كان الفلاسفة الأمبريقيون يرون أن المعرفة الإنسانية تبدأ بالمدركات الحسية، ومن المدركات الحسية تتكون المفاهيم. ثم تأتي بعد ذلك مرحلة تحويل المفاهيم وصياغتها في لغة أو شفرة code. ووظيفة اللغة لا تقتصر فقط على تيسير سبل التفاهم بين البشر، بل إنها تفرز تصورات ذهنية وأفكارا مركبة مؤسسة على المدركات الحسية إلا أنها تتجاوزها وتسمو عليها. وتختلف اللغات باختلاف الطرق التي ينتهجها كل مجتمع في تشكيل مادة الصوت الإنساني والتأليف فيما بين الأصوات لتصبح مفردات تسمى بها الموجودات. وهذه في أساسها مسألة تواضعية بحتة لا تخضع للمنطق بقدر ما تخضع للعرف والاصطلاح. هذا بالإضافة إلى اختلاف المجتمعات كما أوضحنا في اختيار السبل المتميزة التي يسلكها كل منها في تصنيف الموجودات وتقسيمها إلى فصائل وأنواع. وهذه أيضا مسألة تواضعية يحكمها العرف والاصطلاح وتوجهها ظروف البيئة الطبيعية التي يجد المجتمع نفسه مضطرا للتكيف معها وما ينتج عن هذا التكيف من نظم اجتماعية وموروث تاريخي وثقافي. أي أن الاختلاف اللغوي بين الأمم والشعوب لا ينحصر فقط في الأسماء والكلمات التي يطلقونها على الأشياء. يعود هذا الاختلاف أيضا إلى تمايز المجتمعات والثقافات في رؤيتها الكلية ونظرتها العامة إلى الكون بكل ما فيه من موجودات وإلى تباين السبل التي ينتهجونها في تمييز مظاهر الطبيعة وفي تجزئة العالم المحسوس وفي تقسيم مكوناته المادية وتصنيفها في فصائل وأنواع.

الإشارة اللغوية

هذا يفضي بنا إلى الإشارة اللغوية وتعريفها عند سُوسِير (Saussure 1966: 65-7). الكلمة لا تربط بين شيء واسمه. إنها تربط بين مفهوم concept وقالب صوتي sound image. ولا يقصد بالقالب الصوتي هنا مادة الصوت ذاتها كحدث فيزيائي بحت وإنما الأثر النفسي والانطباع الذي يتولد في ذهن السامع حالما تنتقل إليه الكلمة من خلال حاسة السمع (دي سوسير ١٩٨٨: ٨٤–٦). إذا ما تلفظ المتكلم بكلمة "شجرة" مثلا فإنه مهما اختلفت طريقة النطق، أي مادة الصوت، يبقى القالب الصوتي، أي الانطباع الذهني، واحدا عند من يتحدثون لغة المتكلم. وبالمقابل، لو أن جمهورا من الناس يتحدثون لغات مختلفة سمعوا لفظة "شجرة" فإنه على الرغم من أن مادة الصوت واحدة إلا أن الانطباع الذهني الذي يتولد لديهم عند سماع هذه اللفظة سوف يختلف من شخص لآخر، حسب اختلاف الخلفية اللغوية لكل منهم.

فِردينان دي سُوسِير
Ferdinand de Saussure

أما المفهوم الذي يتحد مع القالب الصوتي لتتكون منهما الإشارة اللغوية فإنه لا يقصد به أي شيء محسوس في العالم الخارجي وإنما يقصد به فكرة مجردة أو معنى مجردا دون تعيين أو تخصيص. أي أن المفهوم "شجرة" لا يشير إلى هذه الشجرة في هذه الحديقة أو إلى تلك الشجرة

في ذلك البستان وإنما يقصد به أي شيء وكل شيء يمكن أن ينضوي تحت هذه المفردة اللغوية.

وحينما نتحدث عن القالب الصوتي وعن المفهوم كل على حدة فإن هذا لا يعني بتاتا إمكانية الفصل بينهما أو استقلال أي منهما عن الآخر. الإشارة اللغوية عبارة عن اتحاد لا انفكاك فيه بين القالب الصوتي والمفهوم. إنها أشبه بصفحة من الورق وجهها الفكرة وظهرها الصوت بحيث لا أحد يستطيع تمزيق الوجه دون تمزيق الظهر في الوقت ذاته. كذلك لا أحد يستطيع فصل الصوت عن الفكر ولا فصل الفكر عن الصوت (Saussure 1966: 112-13). وعلى الرغم من العلاقة الاعتباطية بين المفهوم والقالب الصوتي الذي يشير إليه إلا أنه لا يمكن أن يوجد أحدهما بدون الآخر وحضور أي منهما في الذهن أو الحواس يستدعي بالضرورة حضور الآخر لأن اللغة والفكر لا وجود لأي منهما بدون الآخر. وعلاقة القالب الصوتي بالمفهوم هي علاقة الدال بالمدلول بحيث يكون القالب الصوتي هو الدال والمفهوم هو المدلول. ويمكننا الاستعاضة بكلمتي الدال والمدلول بدلا من القالب الصوتي والمفهوم (Saussure 1966: 67).

وبما أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة تواضعية بمعنى أنه لا يوجد سبب قهري يدعو إلى أن يرتبط هذا المدلول دون سواه بذلك الدال، فإن ذلك يعني أنه لا يوجد عنصر أساسي أو خاصية ذاتية ينبغي أن تتوفر في الشيء ليمكن اعتباره مدلولا لذلك الدال. المدلول الذي يرتبط بالدال يمكن له أن يتخذ أي شكل وليس هناك جوهر معنوي يلزم أن يحتفظ به الشيء ليبقى المدلول الأنسب لذلك الدال. هذه الاعتباطية في العلاقة بين الدال والمدلول تؤدي إلى نتيجة واحدة مؤداها أنه إذا لم تكن هناك مدلولات كلية universals ثابتة ومستقرة ولا دوال كلية ثابتة ومستقرة فإن خاصية الاعتباطية تنسحب أيضا على الدال والمدلول ولا تقتصر فقط على العلاقة بينهما (Culler 1986: 23). أي أن تقسيم الدفق الصوتي إلى كلمات وكذلك تقسيم المجال المادي الحسي إلى أشياء ومفاهيم لا تعدو أن تكون إجراءات اعتباطية تتم بالتواضع والاتفاق وبذلك فهي تختلف، كما رأينا، من ثقافة إلى أخرى.

بما أن الإشارة اللغوية تواضعية، بما أنها تنتج عن تقسيم الدفق الصوتي المتداخل وكذلك العالم الحسي المتمازج بطرق متميزة تتفرد بها كل لغة على حدة، فإن ذلك يعني أنه لا يمكن النظر إلى الإشارة اللغوية كما لو كانت شيئا مستقلا بذاته بل لا بد من النظر إليها كجزء من نسق. هذا لا يعني فقط أنه لكي تعرف معنى أحمر فلا بد لك أن تعرف معنى أخضر وأزرق الخ. بل يصح لنا أن نقول إن مدلولات الكلمات التي نطلقها على الألوان لا تعدو أن تكون محصلة نسق التمايزات التي تتبناها اللغة. حينما تقسم اللغة الطيف إلى أصناف متمايزة من الألوان وتطلق عليها أسماءها فإنها تقيم نسقا فريدا من المدلولات، أي الكيانات التي يتحدد كل منها من واقع العلاقات القائمة بينها (Lyons 1968: 56-9). وظيفة اللغة ليست إطلاق مسميات على مفاهيم مسبقة ومستقلة في الوجود. مهمة اللغة الحقيقية هي من جهة إقامة علاقات اعتباطية بين ما تختاره من دوال وهي من جهة أخرى إقامة علاقات اعتباطية أيضا بين ما تختاره من مدلولات. لو نظرنا إلى أي لغة من اللغات لوجدنا أنها لا تتوقف عند حد وضع مجموعة تختص بها من الدوال عن طريق مفصلة الدفق الصوتي على شكل ألفاظ مجزأة ومتمايزة. بل إن هذه اللغة بناء على ذلك تقوم في الوقت نفسه بوضع مجموعة تختص بها من المدلولات عن طريق تجزئة العالم الحسي بطريقة تواضعية إلى مفاهيم وتصنيفه في فصائل.

إن الاعتباطية في تشكيل الكلمات من جانب وفي تصنيف الموجودات من الجانب الآخر يفضي بنا إلى

نتيجة هامة مؤداها أن الأشياء ليس لها وجود مستقل وأنه لا يمكن التعرف على ماهية الشيء من جوهره ولا حتى من الكلمة التي تستخدم للدلالة عليه. ترتبط ماهية الشيء بتقابله مع غيره من الأشياء. وبالمقابل فإن معنى الكلمة لا يكمن في جوهرها ولا حتى في الشيء الذي تدل عليه بل في تقابلها مع غيرها من الكلمات. الأصوات في حد ذاتها لا تعني شيئا ولا تشكل لغة ما لم تعبر عن أفكار وتتضمن مفاهيم. ولكن لكي تعبر الأصوات عن أفكار وتحمل معاني، لا بد أن تقوم بينها علاقات بحيث تشكل في مجملها نسق مترابط من الإشارات. هذا هو لب النظرية اللغوية عند سُوسِير. الكلمات، مثلها مثل بقية الأشياء، ليست إلا عناصر مترابطة ضمن نسق متكامل وما يحدد معناها هو علاقتها بغيرها من عناصر النسق. العلاقات القائمة بين عناصر النسق هي التي تحدد معنى كل عنصر فيه. هذا يعني أن الكلمة ليست هي التي تحدد معنى الشيء وكنهه وإنما الذي يحدد ذلك علاقة الشيء بغيره من الأشياء ومكانته في نظام التصنيف الذي تتبناه هذه الثقافة أو تلك. وبالمقابل، لا يكمن معنى الكلمة في الشيء أو المفهوم الذي تشير إليه بل في علاقة هذه الكلمة بغيرها من الكلمات ومكانتها في النسق اللغوي. مثال ذلك أننا لن نعرف المقصود بقولنا "أحمر" إلا إذا تعرفنا على "أخضر" و "أزرق" الخ واتضحت لنا علاقة هذه الألوان فيما بينها. كما أنه لا يمكننا أن نعرف معنى "خال" إلا إذا تبينا موقع هذا العنصر في النسق القرابي وعلاقته بالعناصر الأخرى مثل "خالة" و "عم" و "عمة" وهلم جرا.

هوية الوحدة اللغوية

إن لم تكن الكلمة عبارة عن لفظ نطلقه على شيء في الوجود، ماذا تكون إذا؟ يولي سُوسِير إشكالية تحديد هوية الوحدة في اللغة اهتماما خاصا (Saussure 1966: 102-1). لا بد أن يكون هناك لكل كلمة أو عبارة هوية محددة نتعرف بها عليها ونستطيع بواسطتها أن نوظفها ونستعملها بالطريقة الصحيحة في التخاطب وفي تأليف الكلام. بدون أن تكون لكل كلمة أو عبارة هوية محددة ومعروفة كيف يمكننا أن نتعرف على هذه العناصر ونعرف إذا ما كنا نكرر نفس الكلمات ونعيد نفس العبارات أو أننا نقول شيئا مختلفا؟ بمعنى كيف يمكننا اعتبار لفظين أو أكثر نفس الكلمة؟ تصور أننا استطعنا حصر كل الحالات التي تم فيها التلفظ بكلمة "شجرة" منذ نشأة اللغة العربية حتى يومنا هذا من قبل الناطقين بلغة الضاد على تباين مشاربهم ولهجاتهم وعلى اختلاف أجناسهم وأعمارهم واختلافهم في البنية والتركيب الجسماني وسلامة أعضاء النطق وما شابه ذلك. لا غرو أن عدد حالات التلفظ هذه سوف يفوق الحصر ومع ذلك فإن مادة الصوت في كل منها إذا ما قيست مخبريا بمقياس إلكتروني دقيق سوف تختلف، إن كثيرا أو قليلا، عن كل الحالات الأخرى. كذلك معنى الكلمة قد يختلف من سياق لغوي إلى آخر كأن يكون المقصود "شجرة التفاح" أو "شجرة الزيتون" أو "شجرة الحياة" أو "شجرة العائلة" أو "شجرة الدر" وهلم جرا. إلا أنه على الرغم من الاختلاف في الدلالة وفي مادة الصوت تبقى الكلمة هي الكلمة. ولنا أن نتساءل: إلى أي مدى يمكن أن يختلف نطق الكلمة أو معناها من حالة إلى أخرى وتبقى مع ذلك هي الكلمة؟ ولتوضيح هذه المسألة يمكننا أن نطرحها على صعيد آخر. إلى أي مدى يمكن أن يتغير اللون الأخضر مثلا ويبقى مع ذلك أخضر؟ الإجابة متشابهة على كلا السؤالين. يبقى اللون الأخضر أخضرا ما لم يدخل في نطاق اللون الأقرب إليه على الطيف. كذلك الكلمة "أخضر" تبقى هي هي مهما تغير نطقها ما لم تدخل في نطاق أقرب الكلمات إليها في اللفظ مثل "أخطر"،

"أحضر" إلخ. لكن علينا أن نتنبه إلى أن تقسيم الطيف مسألة اعتباطية بحيث أن الحد الفاصل الذي ينتهي عنده اللون الأخضر ويبدأ اللون الذي يليه مسألة تختلف من ثقافة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر.

إن هوية أي كلمة مثل "زار" لا تكمن حقيقة في هذه الأصوات التي نسمعها حال التلفظ بالكلمة ولا في دلالتها. طريقة النطق، كما أسلفنا، تختلف من متكلم لآخر ومن حالة لأخرى. كما أن اللفظة الواحدة قد تشير إلى عدة أشياء مثل "حفظ درسه" و"حفظ عرضه" و"حفظ الأمانة"، أو كقولنا "تبنى موقفا" و "تبنى طفلا" وهكذا. هذا يبرهن لنا أنه لا فائدة من محاولة تحديد هوية الكلمة بالرجوع إلى القاموس لنستخرج معناها أو الطريقة التي تنطق بها. هوية الكلمة لا تكمن في مادتها الصوتية، بل في التمايزات التي بواسطتها نستطيع التفريق بين "زار"، "سار"، "صار" الخ. ولذلك يميز اللغويون بين علم الأصوات كعلم مجرد phonetics، والذي يتناول الصوت كمادة فيزيائية، وبين علم الأصوات اللغوية phonemics. والذي يتناول الصوت كحقيقة سيكولوجية ومادة لغوية لها دلالة. وقد استعار الأنثربولوجيون من علم اللغة مفهوم etic ومفهوم emic للتمييز بين الحقائق الاجتماعية والثقافية كأحداث عينية عارضة وبينها كوحدات مترابطة في نسق ثقافي واجتماعي يمنحها قيمتها ومعناها.

الإشارة اللغوية ليست هي الصوت الذي تحدثه أعضاء النطق عند المتكلم أثناء الحديث. الإشارة اللغوية حقيقة ذهنية وليست مادية وعنصر مجرد لا تتحدد هويته في الصوت الناتج عن التلفظ به، بل تتحدد في العلاقات التي تربطه ببقية عناصر النسق الرمزي اللغوي الذي ينتمي إليه وفي الفروقات التي تميزه عن هذه العناصر (Lyons 1972: 64-5; Saussure 1966: 10-20). الإشارة اللغوية شيء مختلف عن تحقيقها الصوتي؛ فهي ليست مادة الصوت الذي تحدثه أعضاء النطق عند المتكلم أثناء الحديث. لا ينطوي الدال في صميم خصائصه الصوتية على أية إحالة إلى المدلول. الصوت ليس إلا مجرد أداة يستخدمها المتكلمون للتفاهم فيما بينهم وتوصيل الأفكار من ذهن المتكلم إلى ذهن السامع، لكنها في حد ذاتها ليست بذات أهمية، ولنا أن نتصور أدوات ومواد أخرى لتوصيل الفكرة مثل اللمس والرؤية والشم. وهذا شبيه إلى حد ما بالشفرة التي تتحقق في الأجهزة المبرقة لكن الأجهزة ذاتها لا تشكل جزءا من نظام الشفرة. لا يهتم اللغويون بمادة الصوت كحدث فيزيائي. المهم هو الجانب السيكولوجي للإشارة اللغوية والذي يتمثل في المفاهيم concepts والصور الصوتية sound images والعلاقات القائمة بينها. تحديد الدال أو المدلول لا يقوم على مادته ولا على طبيعته ولا على ارتباطه بأي شيء خارجي وإنما على وجوده كجزء من نسق وعلى الفروقات التي يتمايز بها عن المكونات الأخرى للنسق الذي ينتمي إليه. مادة الأصوات الحادثة من جراء التلفظ بالكلمات ليست وحدات لغوية لأن الوحدة اللغوية هي في حقيقتها شكل لا مادة وهويتها تتحدد من العلاقات التي بها تتمايز عن غيرها من الوحدات. إنها كيان ذهني مجرد لا ينبغي أن نخلط بينه وبين مادة الصوت (Holdcroft 1991: 49, 93).

اللغة نظام قائم بذاته ومكتف بنفسه وليس له أي ارتباط بأي شيء خارج عنه، وليس هو انعكاسا لأي شيء آخر كالفكر أو المحيط الخارجي وعالم المادة أو ما إلى ذلك. ولذلك فإنه من الخطأ أن نقيس اللغة بغيرها ونحاول تفسير خصائصها البنيوية أو الدلالية من خلال النظر والمقارنة مع خصائص البنى والنظم الأخرى (Holdcroft 1991: 10). السمات الفارقة، وليست مادة الصوت، هي التي يعول عليها في تحديد هوية الإشارة اللغوية وفرزها عن غيرها من الإشارات في نفس النسق. النسق اللغوي مجموعة من العلاقات المجردة التي

تتحقق من خلال وسيط معين ومادة معينة مثل الصوت لكن ماهية هذا النسق لا تحددها طبيعة الوسيط ولا مادته ولا أي شيء آخر عدا العلاقات القائمة بين مكوناته في لحظة من اللحظات (Saussure 1966: 80). وبناء على ذلك، يرى سُوسِير أن الهدف الأساسي في علم اللغة ليس ما كان يقوم به اللغويون من دراسة تاريخ اللغة وتطورها، أو ما يسمى بالدراسات التتبعية أو الداياكْرونية diachronic، وإنما دراسة الوضعية اللغوية etat de langue في مرحلة معينة كنظام متداخل من الإشارات التي تتحدد معانيها من طبيعة العلاقات القائمة بينها في لحظة من اللحظات، وهذا ما يطلق عليه الدراسة التزامنية أو السنكْرونية synchronic.

بما أن الدال والمدلول كلاهما اعتباطيان إذن هما عبارة عن مجرد علاقات صرفة. الدال والمدلول كلاهما كيانات تمايزية أو بعبارة أخرى علاقات خالصة (Culler 1986: 23)، أي تقابلات ذهنية مجردة بين الانطباعات المسموعة (Holdcroft 1991: 36). هذا ما يعنيه سُوسِير في تأكيده على أن اللغة نسق من العلاقات التمايزية وأن الإشارة اللغوية شكل form وليست مادة substance. لذلك فإن طبيعة المادة التي يتم اللجوء إليها لتحقيق هذا الشكل والتعبير عنه وتجسيده ليست بذات أهمية طالما ظلت العلاقات المجردة التي يقوم عليها متحققة (Holdcroft 1991: 37). ويوضح سُوسِير هذه الفكرة بالمثال التالي. انظر إلى القطار الذي يغادر من محطة باريس إلى محطة جنيف الساعة ٨:٢٥ مساء كل يوم. يتكلم الناس عن هذا القطار على أنه هو القطار ذاته كل يوم علما بأن طاقم التشغيل والقاطرة والعربات تتغير من يوم لآخر. هذا يوضح لنا أن الأشياء المادية ليست هي التي يعول عليها في تحديد هوية القطار. ما يعول عليه هو علاقة هذا القطار بالقطارات الأخرى وتميزه عنها، أي مكانته في نسق مواصلات السكة الحديدية الذي يعتمد على اتجاهات القطارات المختلفة ومساراتها ومواعيدها. بل إنه لو تأخر القطار عن موعد مغادرته يبقى هو هو ما لم يغير اتجاهه أو يتفق موعد مغادرته مع موعد مغادرة القطار الذي يغادر قبله أو بعده. كذلك الشوارع تحافظ على أسمائها مهما حدث فيها من تغيير مادي نتيجة عمليات الرصف أو الهدم والبناء وما شابه ذلك (Saussure 1966: 108-9).

ويقارن سُوسِير بين اللغة ونظام اخر من الإشارات هو الكتابة (Saussure 1966: 119-20). مثلما أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية كذلك هي العلاقة بين الحرف والصوت اللغوي الذي يرمز إليه، كأن نرمز لصوت التاء هكذا "ت" أو هكذا "t". وكل منا له طريقته الخاصة في الكتابة بحيث أن التشابه التام بين الخطوط أمر مستحيل، بل إن شكل الحرف الواحد يختلف في كل مرة تتم كتابته من قبل الشخص نفسه. المهم في الأمر أن يبقى الحرف متميزا ولا يختلط بما يقاربه شكلا من الحروف. ثم إنه يمكننا الكتابة بأي لون وأي مادة وأي أداة، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقرأ خطوط بعضنا البعض ونتفاهم فيما بيننا بواسطة الكتابة.

اللغة والكلام

يؤكد سُوسِير على عدم الخلط بين قدرة الإنسان العضلية على الكلام من خلال أعضاء النطق وبين الملكة الذهنية التي يمتلكها لتشييد نسق لغوي، أي تنظيم الإشارات المتمايزة التي تقابلها مفاهيم متمايزة، ويعد دراسة الوسائل التي تجعل النطق بالألفاظ أمرا ممكنا أمرا ثانويا بالنسبة لدراسة النسق اللغوي. فهو يرى أن الخاصية الإنسانية التي يتفرد بها البشر ويتميزون بها عن بقية الكائنات، والتي ينبغي أن ينصب اهتمام الدراسات اللغوية عليها، ليست الكلام المنطوق في حد ذاته والقدرة على التلفظ بالصوت الكلامي وإنما ما يقف وراء ذلك من ملكة يتمتع بها البشر لاستخدام الرموز مما يمكن الإنسان من تشييد نسق لغوي Saussure)

(1-10 :1966). إضافة إلى قدرة الإنسان الفسيولوجية/العضلية على الكلام من خلال أعضاء النطق فإن هناك ما هو أهم وأعم وهو قدرته على استخدام الرموز والإشارات، أو ما نسميه الملكة اللغوية. لكن تحقيق الملكة اللغوية يستلزم وجود المجتمع الذي يتعارف أبناؤه على مجموعة من القواعد التي تمكنهم من ممارسة هذه الملكة ويعطون لوحدات اللغة القيم اللازمة والتي تستمد وجودها أصلا من الاصطلاح والاتفاق بين أفراد الجسم الاجتماعي الذين يتراضون عليها ويقبلون بها. اللغة نتاج اجتماعي لملكة الإنسان اللغوية. اعتباطية اللغة تجعل من النسق اللغوي حقيقة اجتماعية يصعب تصور وجودها دون وجود المجتمع (Saussure 1966: 113). كل وسيلة من وسائل التعبير التي يستخدمها أفراد المجتمع تقوم في أساسها على السلوك الجمعي والتعاقد الضمني، أو قل التقليد أو العرف، إذ لا بد لها أن تخضع لقواعد يتبناها أفراد المجتمع. لذا نقول بأن الإشارة اللغوية تستمد معناها من هذه القواعد المتعارف عليها وليس من ذاتها أو مادتها أو أي قيمة كامنة فيها (Saussure 1966: 68).

اللغة حقيقة اجتماعية ونسق من القيم والأعراف المكتسبة التي يتوارثها أبناء المجتمع جيلا بعد جيل، لكن ليس لها تحقق فعلي مادي لأن الناس لا يتكلمون هذه القواعد والأعراف وإنما يتكلمون وفقا لها. ويمكن تشبيه اللغة بالسمفونية والكلام بعزف السمفونية على الآلات الموسيقية. لذا يقول إن الكلام هو الجانب الفردي التنفيذي لهذه الحقيقة الاجتماعية المجردة. الكلام هو الألفاظ التي تصدر عن الأفراد أثناء تحدثهم، لذلك فهو نشاط فعلي وحدث مادي، أما اللغة فهي القواعد الكامنة المختزنة في الذهن التي يذعنون لها وتحكم كلامهم. واللغة نظام اجتماعي مستقل عن الفرد، لذا فهي لا توجد مكتملة بقواعدها ومفرداتها عند أي فرد واحد في المجتمع، إنها محصلة المعرفة اللغوية التي يمتلكها أفراد المجتمع بكاملهم. اللغة هي الشكل والكلام هو المادة وهناك علاقة جدلية بينهما. اللغة نسق مستخلص من محصلة الممارسات الكلامية لأفراد المجتمع، لكن قدرة أي من هؤلاء الأفراد على ممارسة الكلام تفترض مسبقا وجود النسق اللغوي. اللغة كنظام حقيقة غير ملموسة ولا تظهر لنا مكتملة في أي لحظة ولا نستطيع أن ندرك وجودها إلا مجزأة من خلال التحقيقات العينية الفردية للأداء الكلامي. خصائص اللغة، مقابل الكلام، كما حددها دي سُوسِير تتماثل مع خصائص الحقائق الاجتماعية كما حددها إميل دوركهايم، فكل منهما حقيقة تعلو على الفرد وجدت قبله وتبقى بعده وتفرض سلطانها عليه بحكم أنها عرف يتفق عليه الجميع ويتقيدون به. فقواعد السلوك الاجتماعي واللغوي محدد له سلفا ولا يملك الفرد إلا أن يتقيد بها.

ويتحقق كلام الأفراد بصورة إبداعية مبتكرة من الجمل والعبارات والألفاظ غير المتجانسة والتي لا حصر لها ولا سبيل إلى دراستها، على خلاف اللغة التي يمكن حصر مفرداتها وقواعدها. صحيح أن الفرد ليس له الحرية في ابتداع مفردات اللغة وقواعدها لكن له مطلق الحرية في أن يقول ما يريد وبصورة لم يسبقه إليها أحد. الفرد يستطيع الكلام لكنه لا يقدر أن يوجد اللغة ولا أن يعدل فيها لأن اللغة توجد خارج الفرد. ويوضح سُوسِير الفرق بين اللغة والكلام بالقول بأننا نستطيع دراسة مفردات وقواعد اللغات المنقرضة حتى وإن لم نعرف كيفية النطق بها.

وفي الفصل بين اللغة والكلام هو في الواقع فصل بين ما هو جوهري وشكلاني وجمعي وبين ما هو عارض مادي فردي. وتتلخص الظاهرة اللغوية في نظر سُوسِير بأنها مجموعة من الثنائيات المتلازمة التي تتظافر مع بعضها البعض لتشكل مجتمعة ماهية اللغة، وأي عنصر من عناصر أي من هذه الثنائيات لا

تتحقق قيمته إلا من خلال وجود العنصر الآخر وتقابله معه (Saussure 1966: 8). وهذه الثنائيات هي:

١/ ثنائية النطق والسمع، أو المتحدث والسامع. فالصوت حدث ناتج عن تحريك عضلات النطق وهو في الوقت نفسه انطباع سمعي تلتقطه الأذن.

٢/ ثنائية اللفظ والمعنى، أو الدال والمدلول.

٣/ ثنائية الفرد والجماعة فاللغة تتحقق حينما يتحدث الفرد إلى الآخرين لكن الجماعة هي التي تتواضع على الأعراف والقواعد اللغوية التي تمكن الفرد من التحدث إلى الآخرين والتفاهم معهم.

٤/ ثنائية التزامنية والتاريخية، بمعنى أن اللغة في أي لحظة من اللحظات نظام قائم متماسك من الإشارات التي تربطها مع بعضها البعض علاقات متبادلة وهي في الوقت نفسه نتيجة تطور تاريخي وتسير في عملية تغير مستمر.

اللغة والفكر

لا يمكننا تعريف الكلمة بالصوت الملفوظ وإنما هي قبل ذلك وحدة دلالية، وهذا هو المهم. وحيث أن الصوت مجرد أداة لبيان ما في الذهن فإن اللغويين لا يهمهم دراسة أي صوت وإنما فقط تلك الأصوات المحملة بالمعاني (Holdcroft 1991: 22). لا يعد الصوت كيانا لغويا إلا إذا عبر عن معنى، لا بد أن يكون دالا لمدلول. إن لم يعبر الصوت عن فكرة تحول من كيان لغوي إلى مجرد حدث فسيولوجي أو فيزيائي. لو لم تعبر الألفاظ عن أفكار لتحولت من كلمات محددة ومتمايزة إلى ضوضاء وأصوات متداخلة يصعب الفصل فيما بينها. كذلك الأفكار بدون اللغة لا تعدو أن تكون كتلة سديمية مبهمة غير واضحة المعالم. بدون الكلمات يستحيل تحديد الأفكار والتمييز فيما بينها، إذ لا وجود للفكرة بدون لفظ يعبر عنها (Saussure 1966: 111-3).

لكن الألفاظ ليست قوالب جاهزة تُصب فيها الأفكار وإنما هي مادة طيعة يمكن تجزئتها إلى كيانات متمايزة تستمد منها الأفكار ما تحتاج إليه من دوال. غير أنه لا يمكن التعرف على الكيان اللغوي وتحديده بدقة إلا إذا عزل عما يحيط به في السلسلة اللفظية ليمكن مقابلته بغيره من الكيانات اللغوية الأخرى في نفس النسق اللغوي. من أهم خصائص الدفق الصوتي أنه أحادي البعد والاتجاه، فهو يسير في خط زمني مستقيم. إنه أشبه بالخيط أو الشريط الذي لا تستطيع الأذن أن تحس فيه بأي تقسيمات واضحة ولا تستطيع أن تمفصله. لعمل ذلك يلزمنا اللجوء إلى المعنى. حينما نستمع إلى لغة لا نفهمها يصعب علينا مفصلة الدفق الصوتي بمجرد سماع الأصوات الصادرة عمن يتكلم تلك اللغة. ولكن حالما نتعرف على المعاني والوظائف التي تختص بها مكونات السلسلة الصوتية تبدأ هذه المكونات تتمفصل وتأخذ شكل الكلمات المتتابعة. تحديد الإشارة اللغوية والتعرف عليها يتطلب منا عزلها عن ما يسبقها وما يتلوها من إشارات عن طريق مفصلة الدفق الصوتي بواسطة اللجوء إلى المعنى (Saussure 1966: 103-4).

لو نظرنا إلى الأصوات التي يتلفظ بها المتكلم كحدث طبيعي فإن المختصين في فيزياء الصوت لن يجدوا عناء في وصفها كظواهر طبيعية حتى ولو كانوا لا يعرفون لغة المتحدث. لكن لو أرادوا أن يحللوها ويصفوها كألفاظ وكلمات تحمل معاني، أي كمادة لغوية وليس كمادة فيزيائية، فإنه لا بد لهم من معرفة اللغة التي تنتمي لها هذه الأصوات. فعبارة "لبستقميصعلي" مثلا تمثل لمن لا يعرف العربية سلسلة متصلة من الأصوات المتتابعة دون القدرة على مفصلة هذه السلسلة إلى كلمات محددة. أما من يتحدث العربية فإنه

سوف يسمعها على أنها جملة مؤلفة من ثلاث كلمات هي "لبست قميص علي". معرفة السامع بالعربية تمكنه من مفصلة هذه السلسلة الصوتية إلى كلمات تحمل دلالات ومعاني (Holdcroft 1991: 21).

الأفكار والكلمات ضروريان لبعضهما البعض إذ أن كلا منهما يحدد الآخر ويميزه. فالفكرة لا يمكن التعرف عليها ما لم نطلق عليها كلمة تحددها وتفصلها عن كتلة الأفكار الأخرى. والكلمة بدورها لا يمكن تمييزها في الدفق الصوتي وفصلها عن الأصوات المجاورة لها في سلسلة اللفظ ما لم تعبر عن فكرة معينة (Saussure 1966: 111-3). الفكر ليس نشاطا عقليا مستقلا قائما بذاته إذ ليس له وجود بدون اللغة. والكلام بدوره ليس مجرد تجسيد للأفكار. هناك علاقة اعتماد متبادل بين التفكير والكلام ولا يمكن أن يوجد أحدهما أو تتحدد هويته بدون الآخر، وكلاهما يتحقق وجوده بواسطة اللغة (Harris 1988: 29). ويمكن تصوير الحقيقة اللغوية في مجملها على أنها سلسلة من التقسيمات المتتالية والمفصلة على مستويين: مستوى الأفكار المختلطة غير المحددة ومستوى الأصوات التي لا تقل عن الأفكار في الاختلاط وعدم التحديد (دي سوسير ١٩٨٨: ١٣١–٨).

يقول سُوسِير إن الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس إيجاد المادة الصوتية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر والصوت الكلامي بحيث يؤدي ذلك إلى التجزئة المتبادلة لوحدات الفكر والصوت معا. فالفكر الذي هو بطبيعته غامض غير منتظم، يتحدد ويتخذ نظاما معينا أثناء عملية تحلله. لا تتخذ الأفكار شكلا ماديا كما أن الأصوات لا تتحول إلى كيانات ذهنية.

يقول سُوسِير إن الحقيقة المذهلة حقا هي أن "الفكر– الصوت" يقتضي التجزئة وأن اللغة تصوغ وحداتها خلال تشكلها بين كتلتين لا شكل لهما أساسا (Saussure 1966: 112). تخيل الهواء عند ملامسته صفحة الماء: إذا تغير الضغط الجوي تجزأ سطح الماء إلى سلسلة من الأقسام أو الأمواج، وهذه الأمواج تشبه الربط أو القرن بين الفكرة ومادة الصوت. التموجات التي يراها المشاهد على السطح تشكلت بسبب الاختلافات الموضعية في قوة الضغط بين كتلة الماء وكتلة الهواء. ويقصد سُوسِير من هذا المثال أن يوضح مسألتين: المسألة الأولى هي أن اللغة لا تشكل طبقة ثالثة خفية تتوسط بين الفكرة واللفظ حيث لا يوجد طبقة ثالثة بين الماء والهواء ومع ذلك فإن الوسط الذي بينهما يتمفصل ويتشكل. المسألة الثانية أن هذا التشكل الذي يأخذه الوسط هو ذات التشكل الذي تأخذه معا كتلتي الماء والهواء المتلامستان، والتغضنات التي تحدث على سطح الماء وتلك التي تحدث على سطح الهواء متطابقتان تماما. أما كوننا نرى هذه التغضنات تأخذ شكل الأمواج على سطح الماء بينما لا نراها على الهواء فهذا يعود إلى كوننا نستطيع رؤية الماء بينما لا نستطيع رؤية الهواء، تماما مثلما أننا قادرين على سماع الكلمة والاحساس بها كصوت بينما لا يمكننا ذلك بالنسبة لمعناها. إلا أنه مع ذلك لا وجود للمعنى بدون الصوت ولا للصوت بدون المعنى (Harris 1988: 30).

ومن أجل استكمال الحديث عن إشكالية العلاقة بين اللغة والفكر لعله من المفيد أن نتطرق إلى خلفياتها التاريخية والفلسفية؛ فهذه مسألة شغلت بال الكثير من الفلاسفة واللغويين قبل سُوسِير وبعده. ومن أوائل من أثاروا هذا الموضوع المفكر الألماني وِلْيَم فون هَمْبولت (١٧٦٧–١٨٣٥) William von Humboldt الذي تأثر بطروحاته يوهان غُتفريد هِرْدَر (١٧٤٤–١٨٠٣) Johann Gottfried Herder. يرى هِرْدَر أن اللغة تمثل روح الشعب وتختزل هويته القومية وتعكس ثقافته وطريقته في سبل التفكير وسبل الإبداع، أو ما سماه فون هَمْبولت *Weltanschauung*. ونظرا لاختلاف التراكيب اللغوية بين الشعوب فمن الطبيعي، حسب رأيه، أن تختلف تركيبتها

الذهنية وطرائقها في التفكير والتعبير لأن طبيعة الفكر مرتبطة بطبيعة اللغة المتمثلة ليس فقط في مفرداتها ودلالاتها وإنما أيضا في قواعدها النحوية والصرفية والاشتقاقية. فاللغة تفرض بنيتها على البنية الإدراكية والمعرفية، فالفرد يدرك العالم ويراه كما تقدمه له لغته (Penn 1972: 17-25, 47-56; Rossi-Landi 1973: 1).

وقد برزت هذه النظرة مع بروز فكرة القومية والشعور القومي عند الأوربيين بعد أن ودعت أوربا العصور الوسطى وودعت معها هيمنة البابوية ومخلفات الإمبراطورية الرومانية. ومنذ أن بدأت تظهر الدول القومية في أوربا الحديثة على مسرح التاريخ بدأ يحتد الصراع بينها على المستويين الفكري والسياسي مما غذى النزعات القومية المحلية التي صار كل منها يبحث عن خصوصيته التي تميزه عن جيرانه من الشعوب والأعراق والقوميات الأخرى. وتلك كانت هي الفترة التي نشطت فيها حركة جمع الفلكلور المحلي والأساطير الشعبية والأزياء الشعبية ومختلف مظاهر الثقافة المادية والمعنوية بهدف تكريس الهوية القومية والتشجيع على نبذ ومقاومة أي هيمنة خارجية. وكان الألمان مهووسون بشكل خاص بموضوع الخصوصية أو ما يسمونه عقلية الشعب أو روح الشعب *geist* الذي يتمثل في لغته وعاداته وتقاليده، والذي يقولون إن له وجود مستقل عن الأفراد.

كما أن موقف هِرْدَر وغيره في تلك المرحلة جاء كردة فعل على طروحات فلسفية تدور حول بنية الذهن وطبيعة التفكير وهل الأفكار مغروسة سلفا في الذهن أم أنها تُكتسب من خلال التجربة. فهناك المدرسة الفرنسية ممثلة بالفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٨–١٦٥٠) René Descartes وهناك الفلسفة الألمانية ممثلة بالفيلسوف غُتفريد فِلْهِلم لايْبْنِتْس (١٦٤٦–١٧٢٤) Gottfried Wilhelm Leibnitz وعمانيويل كَنْط (١٧٢٤–١٨٠٤) Immanuel Kant. وبالمقابل هناك المدرسة الإنجليزية التي تزعمها جان لُوْك (١٦٣٢–١٧٠٤) John Lock وديفِد هْيُوم (١٧١١–١٧٧٦) David Hume، أو ما يسمى المدرسة الإمبيريقية، والتي تقول بأن الأفكار تكتسب بالتجربة وأن اللغة ما هي إلا وسيلة للتعبير عن هذه الأفكار. أما ديكارت فكان يقول بأن أي فرد من البشر يولد وقد طبعت في عقله بعض الأفكار الأولية التي لا تحتاج إلى برهان، كمبدأ عدم التناقض مثلا أو أن الجزء أصغر من الكل. ابتداء من هذه الأفكار الأولية الحدسية التي لا سبيل إلى الشك في صحتها يمكن التدرج وفق خطوات منطقية متسلسلة ومتدرجة لاستنباط نتائج ومعارف لم تكن متحَصّلة من قبل، بشرط اتباع المنهجية السليمة في الاستنباط والاستدلال بعيدا عن التجربة الحسية وخداع الحواس. فالحواس ليست مصدرا موثوقا للمعرفة الحقة وإنما تأتي المعرفة عن طريق الاستنباط الذي به ينتقل العقل من فكرة بديهية مسلّمة لا نشك في صحتها إلى النتيجة اللازمة عنها. وبذلك دشن ديكارت ما صار يعرف بالفلسفة العقلانية rationalism التي تقول بأن العقل يولد بأفكار فطرية سابقة للتجربة، أو ما يسمى *a priori* أو innate ideas، ويسميها كنط مقولات الفكر categories أو الأطر الذهنية. ويتعارض المذهب العقلاني مع المذهب الحسي التجريبي empiricism الذي دشنه جان لُوْك والذي يقول بأن الفرد يولد وعقله صفحة بيضاء *tabula rasa* تنطبع عليها الأفكار والمفاهيم والتصورات لاحقا وبالتدريج من خلال التجربة الحسية.

جاءت فلسفة كنط كحركة تصحيحية لمباحث الميتافيزيقيا التي قال إن مهمتها ينبغي أن لا تتجاوز حدود التجربة وأن تقتصر على تحديد الحدود التي ينبغي للعقل ألا يتجاوزها، حيث لا توجد، بالنسبة له، معرفة مطلقة. فالتجربة لا تمكّننا من معرفة الأشياء في ذاتها وإنما نعرفها كما تتبدى لعقولنا وهذا كل ما نستطيع معرفته. المعرفة ممكنة فقط في حدود ما تمليه القوانين الكلية للعقل. وتقوم فلسفة كنط على أن الحقيقة

واحدة عند كل الناس، وهو في ذلك يتفق مع ديكارت بأن العقل لديه استعداد فطري لتقبل بعض التصورات القبلية المستقلة عن التجربة. لكن العقل عند كنط أشبه بالمرشح الذي تمر من خلاله التجربة الحسية ليعطيها مظهرها الذي لا يتطابق تماما مع جوهرها، إنه أشبه بالأواني المستطرقة التي تطبع شكلها على السوائل بداخلها. أما فلسفته الأخلاقية فتقوم على فرضية أن قوانين الأخلاق لا تُستمد من الطبيعة البشرية أو عادات الشعوب المتفاوتة ونوازعها المتقلبة التي لا يضبطها ضابط وإنما مما يمليه العقل الخالص بمنأى عن التجربة. فالأخلاق مثل العلم ينبغي أن تستند إلى حقائق سرمدية يتفق عليها جميع البشر، وهذه لا يمكن تجريدها من التجربة بل نتوصل لها من خلال أدوات التحليل والمنطق ومن خلال المبادئ القبلية المغروسة في العقل. وهذا، بطبيعة الحال، يخالف ما يصبو إليه هِرْدَر وغيره من دعاة الخصوصية القومية والعرقية.

وبينما كان الإمبريقيون يحاولون نقض مقولات ديكارت وكنط عن طبيعة الفكر كان جِيَمْبَتِسْتا فِيْكو (١٦٦٨–١٧٤٤) Giambattista Vico يحاول نقض القانون الأخلاقي الذي نادى به الأخير والذي يُفترض أنه قانون صالح لكل زمان ومكان وذلك بتأكيد فِيْكو على النسبية الثقافية وأن كل شعب له قيمه وسننه وأعرافه التي تتواءم مع بيئته الطبيعية والثقافية ومع مسيرته التاريخية (Penn1972: 43-50, 53-6; Rossi-Landi 1973: 38).

وإذا أغفلنا ذلك كله وسلطنا الضوء على القضية الأساسية مدار البحث فإن السؤال يتمحور حول هل الفكر مستقل عن اللغة أم أنه أسير اللغة، وهل تفكير الفرد مرهون بأطر ذهنية مسبقة تحددها له لغته ولا يستطيع الإفلات منها! وبدا الجواب في البداية واضحا لمن طرحوه وكان ينحو منحى سيادة اللغة على الفكر. لكن ما إن نشر أولئك أفكارهم حتى بدت تظهر أسئلة محرجة. فإذا كان الفكر أسير اللغة وإذا كانت طريقة التفكير تختلف باختلاف اللغات فهذا يعني أن التواصل بين الشعوب التي تتحدث لغات مختلفة أمر مشكوك فيه. فكيف يمكن للشعوب أن تتواصل مع بعضها، أو كيف يمكن ترجمة نتاج ثقافة من لغتها إلى لغة أخرى! ثم كيف لنا أن نتوصل إلى حقائق علمية عن طبيعة الكون من حولنا ونخرج باستنتاجات موثوقة وتعميمات كلية لها صفة القوانين التي يتفق عليها كل البشر إذا كنا نشك في إمكانية إدراك الكون من حولنا على حقيقته بموضوعية وتجرد أو إذا كان كل منا ينظر إلى الكون فقط من خلال نافذة اللغة التي يتحدث بها! (Rossi-Landi 1973: 8-9).

ومع إطلالة القرن العشرين بدأت تحتل هذه الإشكالية مركز الصدارة مرة أخرى ولكن من منظور أنثروبولوجي، خصوصا على يد إداورد سابِير (١٨٨٤–١٩٣٩) Edward Sapir وتلميذه بنيامين وورْف (١٨٩٧–١٩٤١) Benjamin Lee Whorf، لتصبح من أهم مباحث الأنثروبولوجيا اللغوية والأنثروبولوجيا الإدراكية cognitive anthroplogy. ومما أثار القضية مرة أخرى هو التساؤل عما إذا كانت لغة الشعوب البدائية بإمكانها مجارات لغات الشعوب المتطورة وكيف تؤثر لغات هذه الشعوب البدائية على إدراكهم وتصنيفهم لمظاهر الطبيعة من حولهم. ونظرا لسهولة تطبيقه حظي موضوع الألوان وإدراك درجات اللون بنصيب وافر من البحث التجريبي في هذا المجال. فقد لاحظ الباحثون أن الأفراد أكثر قدرة على التعرف على درجة اللون الذي له اسم في لغتهم وبعض اللغات لديها كم كبير من أسماء اللون بينما يكاد يقتصر البعض الآخر، خصوصا لدى الشعوب الأكثر بدائية، على لونين فقط هما الفاتح والغامق لا غير. ومع ذلك ينبغي التنبيه أن هذا لا يعني بالضرورة أن لغات الأمم البدائية أسهل وأقل تعقيدا من لغات الأمم المتحضرة، بل قد تكون

على العكس من ذلك. فالبعض منها بإمكانه أن يعبر بكلمة واحدة عن فكرة لا يمكن التعبير عنها بأي لغة أخرى إلا من خلال جملة وصفية طويلة. كل ما هنالك أن بعض اللغات، سواء البدائية منها أو المتطورة، بحكم قواعدها وتركيباتها النحوية والصرفية لديها من الإمكانات للتعبير عن بعض الظواهر ما قد لا يكون متاحا لغيرها من اللغات الأخرى (Rossi-Landi 1973: 11).

وقد سلط كل من ووْرْف وسابِير أبحاثهما على قبائل الهنود في أمريكا الشمالية، خصوصا قبيلتي النافَهو Navajo والهوبِي Hopi. وبحسب رأي جوليا بِنْ Julia M. Penn في مقدمة كتابها الذي هو تلخيص جيد لآراء ووْرْف وسابِير فإن القضية يمكن طرحها من وجهتي نظر مختلفتين أحدهما تتبنى موقفا متطرفا يقول إن الفكر أسير اللغة وأن اللغة هي التي تفكر لنا، وهذا الموقف لا يمكن القبول به، وموقفا آخر معتدلا تؤيده الشواهد ويمكن قبوله يقول إن العمليات الإدراكية تتأثر باللغة لكنها ليست مستعبدة لها. كما تقول بأنه يمكننا بعدما تطورت أساليب التجارب المعملية والمختبرات وأدوات الملاحظة أن نتقبل بدعم من الشواهد الإمبيريقية فرضية وجود طرائق في التفكير يشترك فيها جميع البشر، وهذا هو ما يبحث فيه علماء اللغة مثل تشومسكي ولِنْبِرْغ ورومان ياكسوب في بحثهم عما يسمونه الكليات اللغوية linguistic universals (Penn1972: 10-1).

يعيد سابِير طرح إشكالية العلاقة بين الفكر واللغة ولكن بشيء من الحذر مما يجعل موقفه أقل تطرفا من موقف فون هَمْبولت وهِرْدَر، فهو لا يرى أن البنية الإدراكية أو الذهنية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالبنية اللغوية وإنما كل ما هنالك أن الاستعمال اليومي للغة يبلّد حواسّنا ويؤثر على طريقتنا في الإدراك والتفكير دون أن يقيدها. يقول سابِير:

> خلافا للاعتقاد السائد، فإن البشر لا يعيشون وحيدين في عالم محايد، ولا وحيدين في عالم النشاط الاجتماعي، لكنهم يعيشون بالتأكيد تحت رحمة اللغة التي يتخذونها وسيلة للتعبير في مجتمعهم. إنه لوهم أن نتخيل أن الفرد يتكيف مع الواقع في الأساس بدون اللجوء للغة وأن اللغة ما هي إلا مجرد وسيلة طارئة لمواجهة مشكلات محددة تتعلق بالتواصل أو التدبّر. حقيقة الأمر أن "العالم الحقيقي" هو إلى درجة كبيرة وبدون وعي منا يتشكل من خلال العادات اللغوية للمجتمع. ولا توجد لغتان متشابهان بالقدر الذي يمكّننا من القول إنهما تصوران نفس الواقع الاجتماعي. العوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم متمايزة، وليست مجرد عالم واحد بمسميات مختلفة. حتى أبسط عمليات الإدراك الحسي هي بالتأكيد أكثر مما نتصور تحت رحمة التواضعات الاجتماعية التي نسميها كلمات . . . نحن غالبا نرى ونسمع وكذلك نعيش بالطريقة المحددة التي نرى فيها ونسمع ونعيش لأن العادات اللغوية لمجتمعنا تجعلنا نميل نحو خيارات محددة في الفهم (Sapir 1929: 209).

لكننا نجده في مكان آخر يقول:

> حدود اللغة والفكر ليست متطابقة تماما. اللغة لا تعدو أن تكون، في أحسن الأحوال، مجرد سطح خارجي للفكر في أعم وأشمل مستويات التعبير الرمزي. ولتوضيح هذه الرؤية بشكل مختلف نوعا ما، لنقول إن اللغة هي أساسا وظيفة قبلعقلانية. فهي تعمل بتواضع للافصاح عن الفكر الكامن، أي الذي قد يمكن تبينه فيما بعد، في تصنيفاتها وأشكالها؛ فهي ليست كما يقول الرأي السائد والساذج، البصمة الأخيرة التي توضع على الفكرة بعد اكتمالها (Sapir 1921: 14).

أما موقف ووْرْف فيبدو إلى حدما أكثر تطرفا من أستاذه حيث يميل إلى أولوية اللغة على الفكر ويقول بأن الأفراد خلال مرورهم بنفس التجربة لا يخرجون بنفس الرؤية للكون من حولهم إلا إذا كانوا ينتمون لخلفية

لغوية واحدة أو على الأقل متشابهة. فالنظام اللغوي عنده ليس مجرد أداة للتعبير عن أفكار موجودة في الذهن أصلا وإنما هو من يشكل هذه الأفكار فهو المرشد والدليل لنشاطات الفرد الذهنية وتحليل الانطباعات الحسية وتنسيقها، فهو يفكر من خلال اللغة التي توجه انتباهه بحكم بنيتها الداخلية نحو أشياء محددة في بيئته على حساب أشياء أخرى مما ينتج عنه رؤى للكون تختلف عن بعضها باختلاف اللغات، وكلما زاد اختلاف بعض اللغات عن بعضها كلما زاد الاختلاف في الرؤية (Whorf 1956: 212-4, 252).

الأصناف والأنماط التي ننتقيها من عالم الظواهر حولنا لا ننتقيها لكونها تبحلق في وجه كل متتبع لها، بل على العكس من ذلك فإن العالم يقدم نفسه لنا على شكل تيار كاليديسكوبي kaleidoscopic قُلَّب من الانطباعات المتداخلة التي لا بد من ترتيبها في أذهاننا –وهذا غالبا ما يعني ترتيبها من خلال الأنساق اللغوية التي نستبطنها في عقولنا. فنحن نُجَزِّء الطبيعة من حولنا ونرتبها في مفاهيم ونعطيها دلالات كما هي عادتنا بحكم أننا كلنا أطراف في اتفاق على أن نرتبها بهذا الشكل– اتفاق ملزم لكل أعضاء جماعتنا اللغوية ومُشَفَّرٌ في أنماط لغتنا. والاتفاق بطبيعة الحال اتفاق ضمني غير معلن ولكن شروطه ملزمة بشكل قطعي؛ فلا نستطيع التحدث بتاتا إلا من خلال الرضوخ للطريقة التي يمليها هذا الاتفاق لتنظيم المعلومات وتصنيفها (Whorf 1956: 213-4).

وتورد جوليا بِنْ بعض الانتقادات الموجهة من مختلف الأطراف إلى فرضية ووْرْف منها أنه لو لم تكن رؤيتنا للواقع والعالم من حولنا صحيحة بما فيه الكفاية لما استطعنا العيش والبقاء فيه طوال هذه المدة. وهناك انتقادات تقول إن اللغات قد تختلف عن بعضها البعض في سهولة أو صعوبة التعبير عن فكرة ما لكنها كلها قادرة على التعبير بشكل أو بآخر عن أي فكرة. وتورد رأيا لتشارلز هُكِت Charles Hockett يقول إن من يتكلمون لغات مختلفة باستطاعتهم التكيف مع الظروف المستجدة وإيجاد الوسائل المناسبة لتشفيرها والتعبير عنها لغويا (Penn 1972: 32-9). أما روسي لاندي فيشير إلى كيف استطاعت اللغة اللاتينية منذ بداية العصور الوسطى أن تكيف نفسها وتشتق مفاهيم للتعبير عن مبادئ المسيحية الجديدة التي لم تكن موجودة أصلا في اللاتينية، وكيف استطاع العرب والعبرانيون أن يترجموا فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان من الإغريقية إلى لغاتهم التي تختلف تركيباتها عن اللغة الإغريقية (Rossi-Landi 1973: 56-63).